

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف خلق الله محمد بن عبد الله أفصح العرب،
وأفصح من نطق بالضاد أما بعد :

فقد بلغ البيان النبوي ذروة البيان البشري؛ لِمَا امتاز به من خصائص كثيرة، تميزه عن بيان البشر
وبلاغتهم، وتسمو به عن مستوى كل بيان، وتجعله في ذروة الفصاحة والبلاغة، ولا غرو في هذا، فهو ﷺ
أفصح العرب قاطبة، وليس في هذا الحكم من شك أو امتراء، وحسي شاهداً على هذا أن القوم الذين
أُرسل فيهم رسول الله ﷺ هم أئمة البيان، وأرباب الفصاحة، قد بلغوا في ذلك منزلة رفيعة، ومكانة
سامقة، فقد مارسوا البيان شعراً ونثراً، لهم في ذلك القصائد الطوال، والخطب البليغة، والأمثال السائرة،
فقد ملكوا ناصية البيان، وقادوا أزمته يتصرفون فيه كما يشاؤون، لا تعجزهم لفظة، ولا تندُّ عنهم شاردة
ولا واردة، وهم مع هذا قوم ألداء في خصوماتهم، لا تنقطع بهم حجة، ولا يعوزهم منطق بليغ، وقد رموا
رسول الله ﷺ بكل عيب ونقيصة - زوراً منهم وبهتاناً - ولكنهم لم يستطيعوا أن يرموه بما ينال من
فصاحته، وينقص من بلاغته، ودوا أن يفعلوا ذلك لو ابتغوا إليه سبيلاً؛ ولكنهم يعلمون أن مثل هذه
الفرية زائفة لا تنطلي على دهمائهم، فضلاً على حكماهم وعقلائهم .

وأنى لهم أن ينالوا من بلاغته ﷺ ، أو يجدوا ملمزاً في أسلوبه ومغزماً ؟ وهي تلك البلاغة «التي يعمرها
قلب متصل بجلال خالقه، ويصقلها لسان نزل عليه القرآن بحقائقه، فهي إن لم تكن من الوحي ولكنها
جاءت من سبيله، وإن لم يكن لها منه دليل فقد كانت هي من دليله، مُحْكَمَة الفصول، حتى ليس فيها
عروة مفصولة، محذوفة الفصول، حتى ليس فيها كلمة مفصولة، وكأنها هي في اختصارها وإفادتها نبض
قلب يتكلم، وإنما هي في سموها وإجادتها مظهر من خواطره ﷺ ». (١)

وسيظل بيانه ﷺ نبعاً فياضاً، ومورداً عذباً نديراً يتوافر عليه الدارسون والباحثون؛ للنظر في هذه
البلاغة؛ لاستخراج الدرر الكامنة فيها، والإفادة منها، واقتفاء أثرها، والسير على نهجها وخطاها، كيف
لا وقد أوتي جوامع الكلم، فكان لزاماً علينا من إمعان النظر فيها، وسبر غورها، للوقوف عند درر
بيانه، وحسن منطقه؛ لما تميز به من سمو في اللغة، وعلو في البلاغة، ولما تضمنه منطقه من ذخائر لغوية
لا تنفد، ومن شواهد دالة على حسن القول وبيانه، ومن بدائع الجمال التعبيري التي لا تحُدُّ، ولا تقف
عند غاية تنتهي إليها، ومن هنا كانت هذه الدراسة.

(١) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية : ٢٧٩ .

وأما لماذا الاستفهام؟ ولماذا كان موضوع الدراسة؟ ولماذا حُصِّ من بين الأساليب البلاغية الأخرى والكثيرة؛ فلكون هذا الأسلوب من الأساليب العربية التي تمتاز بالأسرار البلاغية، والنكت البيانية، ففي طياتها ما يدعو إلى تأملها، والغوص في دقائقها وأسرارها؛ لكونها غنية بالملحوظات التي يلحظها البليغ في كلامه، ويُعنى بها، ومن هنا حظي هذا الأسلوب بإشادة العلماء به، وإشارتهم إليه، ولا غرو في هذا فهو «فن عظيم من فنون القول، يسري في أنماط الكلام سريان النسيم في الرياض العطرة، ويزداد تألقاً وبهاء في الأساليب الأدبية الرفيعة، يكشف عن خبئات المعاني، ودقائق الأسرار، ويعرضها عرضاً رائعاً يحمل النفوس على الانتشاء، والمشاعر على التوقد، والقلوب على اليقظة، والعواطف على الاستمتاع، والعقول على الإقناع، ويُريك المعاني في معارض مجلوة، وألوان زاهية، ومذاقات متفاوتة، فتصبح النفوس - بما فيها من ملكات الإدراك - لوحة شديدة الإحساس تنعكس عليها تلك المعاني فتقرأها الأسماع والقلوب قبل أن تقرأها الأبصار.

ولهذا احتل درس الاستفهام عند البلاغيين والنقاد منزلة الثريا، البلاغيون يرصدون صورته، ويحددون أهدافه، والنقاد يكشفون عن أثره في أجناس الأدب، وفنون التعبير الراقى^(١). وأحب أن أبين في هذه المقدمة أن أصل هذا الكتاب رسالة جامعية نلتُ بها درجة الدكتوراه، من كلية اللغة العربية، قسم البلاغة والنقد، بعنوان: (الاستفهام في الصحيحين: خصائصه التركيبية ومعانيه البلاغية)^(٢)، وسترى تلك الرسالة النور قريباً - إن شاء الله - في كتاب مطبوع، وأما هذا الكتاب فقد نقحتُه، وأضفتُ فيه وحذفتُ، وجعلته بعيداً كل البعد عن الأمور الأكاديمية، وعن الدراسات اللغوية المتخصصة لأسلوب الاستفهام، وجعلته بمنأى عن كثير من التفصيلات التي تتطلبها البحوث العلمية المتخصصة، وجعلته قريباً كل القرب من المتذوقين للبلاغة، المحبين لها، الذين يرنون إلى القرب من البلاغة النبوية، والقراءة فيها، من غير التخصص فيها، والإمام بكثير من مسائلها وقضاياها، فجعلتُ هذا الكتاب للمتخصص وغيره، لكل محب للبيان العربي، متذوق له، قدمتُ له هذا البيان في أروع صورته، وأبهى حلله، في كلام المصطفى - عليه الصلاة والسلام - .

(١) التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم : ٣ / ١ .

(٢) وقد طبعت الرسالة - والله الحمد -، فقد تولت جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية طباعتها، وقد نفذت، وسأعيد طباعتها مرة أخرى بإذن، وأعكف حالياً على مراجعتها .

كما أرجو أن يكون هذا الكتاب إسهاماً في البلاغة النبوية، وخدمة لها، تلك البلاغة التي تشكو الضيم والجفاء من أهلها وذويها، فما أقل ما كُتِبَ في البلاغة النبوية، وأقل منه المتخصصين فيها، إذا قيس ذلك بما كُتِبَ في البلاغة القرآنية، وفي بلاغة البشر شعراً ونيراً، وهذا لعمرى في القياس بديع.

وثمة قضية أخرى - هي من الأهمية بمكان - وهي أن الأحاديث الواردة في هذا الكتاب كلها من الصحيحين، فهي صحيحة ثابتة، جلُّها من المتفق عليه، ممن رواه الشيخان، تتجلى أهمية هذه القضية في أننا ننطلق من أحاديث صحيحة نبي عليها قواعدنا، وننطلق من أرض صلبة، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، ومن الخلل العلمي، والخطأ البين أن نتحدث عن البلاغة النبوية من خلال أحاديث ضعيفة، لا يثبت سندها، ولم يصح معناها، ونحن إن فعلنا ذلك فإننا نجني على البلاغة النبوية جناية عظيمة، ونسيء إليها إساءة بالغة.

وبعد: فإني أسأله - سبحانه - التوفيق والسداد لكل معاني الخير والرشاد، وأسأله - سبحانه - أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به كاتبه وقارئه وأن أكون قد وفقت فيه وأصبت، فإن أصبت فذلك أمني ومبتغاي، وإن كانت الأخرى فحسبي أني بذلتُ وسعيت، والحمد لله رب العالمين.

والمؤلف

عبدالعزیز بن صالح العَمَّار

الرياض

aa2008ss8@gmail.com

الحديث الأول:

حديث عظيم، يبعث في روع متلقيه الرهبة والرغبة، ويحمله على الخوف والوجل، وعلى الرجاء في سعة رحمته - سبحانه وتعالى - ، وواسع فضله، وهو حديث طويل، وسأذكره بتمامه؛ ليتسنى الوقوف عنده كاملاً ، ولنتمكن من تدبره، والإحاطة به، وليتبين لنا أثر أسلوب الاستفهام في التعبير عن الموضوع الذي تضمنه، والكشف عنه، ذلكم هو حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قال أناس يارسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يارسول الله، قال: هل تضارون في القمر ليلة البدر، ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يارسول الله، قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك، يجمع الله الناس، فيقول: من كان يعبد شيئاً فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر، ويتبع من كان يعبد الطواغيت، وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه، ويضرب جسر جهنم، قال رسول الله ﷺ فأكون أول من يجيز، ودعاء الرسل يومئذ: اللهم سلّم سلّم، وبه كلاليب مثل شوك السعدان، أما رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: بلى يارسول الله، قال: فإنها مثل شوك السعدان، غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله، فتخطف الناس بأعمالهم، منهم: الموبق بعمله، ومنهم: المخردل، ثم ينجو، حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده، وأراد أن يخرج من النار من أراد أن يخرج ممن كان يشهد ألا إله إلا الله، أمر الملائكة أن يخرجوهم، فيعرفونهم بعلامة آثار السجود، وحرّم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، فيخرجوهم، قد امّثحشوا، فيصب عليهم ماء، يُقال له: ماء الحياة، فينبتون نبات الحبة في حميل السيل، ويبقى رجل مقبل بوجهه على النار، فيقول: يارب قد قشبنني ريحها، وأحرقني ذكائوها، فاصرف وجهي عن النار، فلا يزال يدعو الله، فيقول: لعلك إن أعطيتك أن تسألني غيره، فيقول: لا وعزتك، لا أسألك غيره، فيُصرف وجهه عن النار، ثم يقول: بعد ذلك: . يارب، قربني إلى باب الجنة، فيقول: أليس قد زعمتَ ألا تسألني غيره؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك! فلا يزال يدعو، فيقول: لعلني إن أعطيتك تسألني غيره، فيقول: لا وعزتك، لا أسألك غيره، فيعطي الله ما شاء من عهد وميثاق ألا يسأله غيره، فيقربه إلى باب الجنة، فإذا رأى ما فيها سكت ما شاء الله أن يسكت، ثم قال: ربّ أدخلني الجنة، ثم يقول: أليس قد زعمتَ ألا تسألني غيره؟ ويلك يا ابن آدم ما أغدرك! فيقول: يارب لا تجعلني أشقى خلقك، فلا يزال يدعو، حتى يضحك، فإذا ضحك منه أذن له بالدخول فيها، فإذا دخل فيها، قيل:

تمنّ من كذا، فيتمنى، ثم يقال له: تمنّ من كذا، فيتمنى، حتى تنقطع به الأماني، فيقول: هذا لك، ومثله معه) قال أبو هريرة رضي الله عنه: وذلك الرجل آخر أهل الجنة دخولاً. (١)

أول ما يستوقفنا في هذا الحديث العظيم: الاستفهام الذي جاء في صدره، وهو قول صحابة رسول الله ﷺ (هل نرى ربنا يوم القيامة)؟ وإنه لاستفهام عظيم، وسؤال خطير، ولي معه عدة وقفات، أبين من خلالها بعض إيجاباته ودلالاته .

منها: باعث الاستفهام، والدافع له، فمما لا شك فيه أن الذي دفعهم إلى هذا السؤال هو شوقهم الذي يملأ جوانحهم لرؤية خالقهم - سبحانه وتعالى - ، وحبهم له، فقد حملهم هذا الحب، وذلك الشوق إلى سؤال رسول الله ﷺ هذا السؤال، وطرح هذا الاستفهام بين يديه، كيف لا يتشوقون إلى ذلك والذي يسألون عنه هو ربهم، وخالق أمرهم، المدير لجميع أمورهم وشؤونهم، فهو سيدهم ومولاهم، ولعل هذا هو السرُّ في إثارة لفظة "الرب" في قولهم (هل نرى ربنا) دون لفظ الجلالة مثلاً، فإذا كان المسؤول عنه هو ربهم فلا غرو أن يكون منهم هذا الأمر، وأن يكون هذا حالهم من الشوق، والرغبة، والمحبة.

وقد أقرهم رسول الله ﷺ على سؤالهم، ولم ينكر عليهم، بل تجاوب معهم، وشاركهم، فأجابهم قائلاً: (هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يارسول الله، قال: هل تضارون في القمر ليلة البدر، ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يارسول الله، قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك)، وإثابة لإجابة كافية شافية جاءت لترد على كل ما في نفوسهم من تساؤلات، متوافقة كذلك مع ما في نفوسهم من تشوق وتطلعات، ولي مع هذه الإجابة عدة وقفات:

أولاً: أجاب رسول الله ﷺ عن استفهامهم باستفهام آخر، وفي هذا دلالة على بلاغة هذا الأسلوب، وعمق أثره في النفوس، وشدة تأثيره فيها، وسرعة نفوذه إلى أعماقها، فهم يسألون عن قضية كبرى، لها مكانتها ومنزلتها في الدين، سؤال يُشكّل عقيدة هذه الأمة، ويقررها، ويرسي أركانها، فمنزلتها من الدين منزلة الرأس من الجسد، ومن هنا كان الاهتمام بأمرها، والاحتفاء بشأنها، وقد عبّر عن هذا الاهتمام من خلال إجابته ﷺ عن هذا السؤال بطريق الاستفهام في قوله (هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يارسول الله، قال: هل تضارون في القمر ليلة البدر، ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يارسول الله، قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك) .

(١) فتح الباري: ٣٤١/٢، رقم: ٨٠٦، صحيح مسلم: ١/١٦٣، رقم: ٢٩٩ .

ولا غرو أن يجيب ﷺ عن هذا السؤال الخطير والكبير في الوقت نفسه باستفهام يُضَمِّنُه الإجابة غير المباشرة، ويلفت أنظارهم إلى ما هو أبعد مما سألوا عنه، فلا غرو أن يكون منه هذا ﷺ وهو البليغ بمنطقه، الفصيح ببيانه، وذلك «أن سؤالاً كهذا السؤال لا بد من تقريب إجابته، ولا بد من تهيئة الذهن لتلقي الجواب، إذ إنه سؤال كبير ... والصحابة لا يكادون يتخيلون رؤية الله - تبارك وتعالى - إذ هو نور فكيف لهم برؤيته - عز وجل -، ورسول الله ﷺ الخبير بقومه، يرى أقرب شيء لهم أن يثير فيهم ما لا ينكرون رؤيته، وهما أظهر شيء في جريدة العرب: الشمس والقمر، فيبدأ الجواب بالتسهيل، وتبدأ العقول بتفهم الآتي رويداً رويداً، وهو تقديم يعين على تلقي الإجابة بدافع من الشوق والارتياح» (١).

وسيقودهم نظرهم في سؤاله ﷺ، وتأملهم إلى الاهتداء إلى الإجابة عما سألوا، فسيعلمون الحقيقة، ويدركونها حق اليقين، فتُسَرَّ بذلك نفوسهم، وتطمئن قلوبهم .

ثانياً: إيتار لفظة " تضارون " ، وهي مأخوذة من الضرر، والمعنى: إنكم في رؤيتكم له - سبحانه وتعالى - لا تضرون أحداً، ولا يضركم أحد بمنازعة، ولا مضايقة، فلا ضرر على أحد منكم من المزاحمة والمدافعة، فلا تتزاحمون في رؤيته - عز وجل -، ولا يحجب بعضكم الرؤية عن بعض؛ وذلك أن الدنو الشديد من بعض، والتقارب بين الشيئين قد يتسبب في الضرر. (٢)

ولا يخفى أن اللفظة " تضارون " ودلالاتها أترأ حميداً في نفوس الصحابة ﷺ، كما أنها - بدلالاتها المتعددة - جزء رئيس من إجابته ﷺ عن سؤالهم المتقدم بشأن رؤيته - عز وجل - يوم القيامة.

ثالثاً: التشبيه، في إجابته ﷺ في قوله (هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: هل تضارون في القمر ليلة البدر، ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك)، ولهذا التشبيه أسرار بلاغية، ونكت بيانية، كما أن فيه كثيراً من الدلالات، فمما لا شك فيه أن المراد من التشبيه هو تشبيه الرؤية بالرؤية بجامع الوضوح، وفي عدم المشقة في ذلك والعنت، وإلحاق الضرر بعضهم ببعض، وليس المراد بذلك: تشبيه المرئي بالمرئي، تقدس - سبحانه وتعالى - عن ذلك، وعلا علواً كبيراً، يدل على هذا الأمر قوله ﷺ في التشبيه (كما ترون القمر)، إذ لم يقل: كالقمر. (٣)

(١) مشاهد القيامة في الحديث النبوي: ٣٧٥ .

(٢) انظر: فتح الباري: ٤٥٥/١١ .

(٣) انظر: فتح الباري: ٤٥٥/١١، إكمال المعلم بفوائد مسلم: ٥٤٣/١ .

ومن الأمور اللافتة . كذلك . في هذا التشبيه . التي يحسن الوقوف معها، والإشارة إلى دلالتها : السرُّ في اختيار لفظي: "الشمس والقمر"، في هذا التشبيه، وبيان أثرهما في السياق الذي وردا فيه، فلا شك أن هذه اللفظتين أثراً حميداً في بناء الصورة الأدبية، وفي إظهار المعنى المراد بيانه وإيضاحه؛ وذلك لما حُصِّ به هذان الكوكبان من الضياء والنور، فقد بلغا الكمال في ذلك، وبهما يُضرب المثل في الكمال والجمال، ومن هنا ورد هذان الكوكبان في هذا التشبيه الذي ساقه رسول الله ﷺ في معرض إجابته عما سألوا عنه بشأن رؤيته - عز وجل - يوم القيامة، ومن هنا يظهر سرُّ اختيارهما في هذا السياق، ومن دلالات ذلك - أيضاً - : « أن رؤية القمر والشمس ليسا في سحابة تتّم دون عناء، ودون أن يضايق أحد أحداً، وهكذا رؤية الله - عز وجل - يوم القيامة، وهناك ظل محجب للشمس والقمر، والتعرض لأشعتهما، فرؤيتهما تبعث في النفس سروراً وأنساً، فهل يكون هذا الظل المحجب سبباً في عقد هذه المشاهدة، بمعنى أن رؤية الله يوم القيامة تتم بسهولة ويسر، ويكون معها سرور وأنس وسعادة، لعل النصوص التي تقرر أنها ذروة سعادة أهل الجنة تجعلنا نرعى لهذا الظل قيمته في هذه المشاهدة » (١).

رابعاً: تكراره ﷺ الاستفهام مرة بعد أخرى في إجابته عن سؤالهم، فقد استفهم أولاً عن رؤيتهم للشمس ليس دونها سحاب، ثم أتبعه باستفهام آخر عن رؤيتهم للقمر ليس دونه سحاب، وفي هاتين الرؤيتين لا يضارون في رؤية كل واحد منهما، وفي هذا التكرار تأكيد للرؤية، وإثبات لها، ولم يكتفِ ﷺ باستفهام واحد، ولكن أتبعه بآخر؛ تأكيداً للرؤية، وتثبيتاً لها في الآخرة، فقد جاء التكرار ليزيل ما قد يعلق في نفوسهم من أدنى شائبة، قد تعلق بها من الخوف، أو الشفقة من عدم الرؤية .

خامساً: التأكيد في قوله ﷺ (فإنكم ترونه كذلك)، فتصدير الجملة بـ"إنَّ" المؤكدة الثقيلة تأكيد للرؤية، وتقرير لها، فهي رؤية ثابتة، لا تحوم حولها الريب ولا الشكوك، ولعل السرُّ في تأكيد الخبر أنه جاء ليطمئن هذه النفوس الوجلة، الحريصة كل الحرص على رؤية ربها يوم القيامة، فقد دفعها حرصها وشوقها إلى سؤاله ﷺ هذا السؤال، فكأنه نظر إلى ما في قلوبهم من وجل، وما في نفوسهم من شوق ورغبة، فخطبهم مؤكداً رؤيتهم لربهم يوم القيامة، فحتى تطمئن نفوسهم، ساق لهم الخبر مؤكداً، قاطعاً بالرؤية، فلتطمئن هذه النفوس، ولتقرّ بذلك عيناً .

وبعد: فليس هذا كل ما في هذا الحديث العظيم، فثمة شاهد آخر للاستفهام يتعلق بأمر جليل من أمور العقيدة، بيوم القيامة، وما يكون فيه من الأحوال في عرصات ذلك اليوم، وهو ما يتعلق بالجرس

(١) التصوير الفني في الحديث النبوي: ١٠٥ .

المنصوب على متن جهنم . أعادنا الله وإياكم منها. وشاهد ذلك في قوله ﷺ (ويُضرب جسر جهنم، قال رسول الله ﷺ فأكون أول من يجيز، ودعاء الرسل يومئذ: اللهم سلِّم سلِّم، وبه كالاليب مثل شوك السعدان، أما رأيتم شوك السعدان؟ قالوا: بلى يارسول الله، قال: فإنها مثل شوك السعدان، غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله، فتخطف الناس بأعمالهم، منهم: الموبق بعمله، ومنهم: المخردل، ثم ينجو)، شاهد الاستفهام في قوله ﷺ (أما رأيتم شوك السعدان)؟، وقد أورد النبي ﷺ هذا الاستفهام بعدما ذكر لهم أن الكاليب مثل شوك السعدان، وفي تشبيه الكاليب بشوك السعدان، وما أتبع ذلك من استفهام، صور بيانية رائعة، وإشارات مضيئة في هذا النص، سأقف معها؛ لكي أجلي هذه الصورة، وأبين ما انطوت عليه من أسرار بلاغية، ونكت بيانية.

أما شوك السعدان فهو نبات يُضرب به المثل في طيب مرعاه، وهو أفضل ما يكون من النبات وأطيبه، والسعدان هو الشوك، وبه يُضرب المثل في الحسن، فيقال: مرعى ولا كالسعدان. (١)

أراد النبي ﷺ من هذا التشبيه: الإشارة إلى ما تميز به هذا الشوك من شدة اختطافه للمار حوله، وكثرة الانتشاب به، مع صعوبة التحرز منه واتقائه^(٢)، وهي أمور لا تفاهم؛ إذ لا يجهلهم هذا النبات وحقيقته، ومن هنا تتجلى لنا بلاغة هذا التشبيه في هذا السياق المليء بالأهوال والمخاطر؛ وذلك أن ذكر هذا الشوك - وهذه صفاته ونعوته، وذكره في هذا المقام - «يخلع على المشاهد رهبة شديدة، فهم يتحاشون المرور على شوك هذا النبات في أرضهم؛ لما يحمله من إيذاء واطئه، فكيف إذا كان يغطي مساحة الصراط؟ والمرور عليه من الأمور المقدره، لا يستطيعون منها فكاكاً، إن اختيار رسول الله ﷺ لهذه المشبهات مما يعلي قدر الصور البيانية، حتى تبلغ بتأثيرها القوي مكانم الإثارة في القلوب، وتحرك هواجس الخشية لدى المؤمنين؛ حتى يلجأوا إلى الرجاء، ويتوجهون إلى خالق الأرض والسماء». (٣)

إذن فهذه دلالات هذا التشبيه، وتلك إيجاءاته المشعة في هذا السياق، وإن كان الغرض من هذا التشبيه هو إيضاح الكاليب المضروبة على جسر جهنم وبيائها، إلا أنه ﷺ لم يكتف بدلالة هذا التشبيه، فأتبعه بالاستفهام؛ ليجلي حقيقة هذه الكاليب، ويعمّن في بيانها في قوله ﷺ (أما رأيتم شوك السعدان)؟ فقد أورد ﷺ الاستفهام ابتداءً من لدنه، ولم ينتظر منهم سؤالاً لماهيته، وقد أراد من ذلك مزيداً من

(١) انظر: مجمع الأمثال: ٢٦٥/٣ .

(٢) انظر: فتح الباري: ٤٦٢/١١ .

(٣) مشاهد القيامة في الحديث النبوي: ٣٣٢ .

الإيضاح، ومزيداً من التقرير لها؛ من أجل استحضار صورتها، وتمثل هيئتها في أذهانهم حين شبهها بنبات معروف لديهم.

ومن الأمور اللافتة في هذا التشبيه الاحتراز الذي ذكره رسول الله ﷺ في آخره في قوله (فإنها مثل شوك السعدان، غير أنها لا يعلم قدر عظمها إلا الله) تأمل قوله ﷺ (غير أنها لا يعلم قدر عظمتها إلا الله) فستجد أن لهذا الاحتراز دلالات مهمة يُراد بيانها والإشارة إليها في هذا السياق؛ لتكون حاضرة في أذهان المخاطبين، فقد أراد ﷺ من ذلك الإشارة إلى عظم تلك الكلاب، وشدة خطرهما، فهي كلاب مهولة تأخذ بعقل من يراها، فكيف بمن يمرُّ عليها؟ ومن هنا كان دعاء الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - (اللهم سلِّم سلِّم)؛ لوقوفهم على حقيقة تلك الكلاب، ولعلمهم بأهوال هذا الموقف وشدته .

إذن فقد أراد ﷺ من هذا الاحتراز: الإشارة إلى المفارقة التامة بين الكلاب المضروبة على جسر جهنم وبين شوك السعدان، وحسبك دلالة على هذه المفارقة بينهما قوله ﷺ (غير أنها لا يعلم قدرها إلا الله) فلن تجد أبغ من هذه العبارة في الدلالة على هذا المعنى، فسينسى الناس شوك السعدان وحسكه عند هذه الكلاب .

وبعد: فهذه صورة من صور الموقف، ومشهد من مشاهد يوم القيامة، وهي أمور من صميم عقيدتنا، لا يتم إيمان المرء إلا بها، هذه الصور، وتلك المشاهد تم التعبير عنها، والدلالة عليها من خلال أسلوب الاستفهام، ومن هنا يعلم الأثر الكبير الذي يؤديه هذا الأسلوب، ومنه يتبين كذلك أن هذا الأسلوب ركيزة رئيسة في الحديث عن العقيدة، وبيانها، فقد اتخذ رسول الله ﷺ وسيلة لبيان كثير من القضايا العقدية، وإبرازها من خلال هذا الأسلوب.

الحديث الثاني:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمساً، مات قول ذلك يبقى من درنه؟ قالوا: لا يُبقي من درنه شيئاً، قال: فذلك مثل الصلوات الخمس، يمحو الله به الخطايا). (١)

في هذا الحديث يرشد النبي ﷺ أمته إلى أمر عظيم فيه نجاحها وفلاحها في الدنيا والآخرة، إلا أنه لم يرد ﷺ أن يعرض هذا الخبر إلا بصورة بليغة تليق بمضمونه، وشرف محتواه، فذكره بهذه الصورة البليغة، الناطقة بحسن بلاغته وفصاحته .

(١) فتح الباري: ١٤/٢، برقم: ٥٢٨، صحيح مسلم: ١/٤٦٢، برقم: ٢٨٣ .

في هذا الحديث ترغيب بأداء الصلاة، والمحافظة عليها خمس مرات في اليوم والليلة، إلا أنه ﷺ لم يرد أن يذكر هذا العمل صريحاً بالأمر به، ولكن أثر الترغيب به من خلال أسلوب الاستفهام، ومن خلال هذه الصورة البيانية الرائعة التي رسمها للصلاة في أثرها وتأثيرها على من يواظب عليها، فلنا أن نتأمل هذه الصورة البيانية المشرقة للصلاة، فهي نهر غمر جارٍ قريب ملتصق بالأبواب والبيوت، ما أروعها من صورة! وما أجمله من مشهد! ترنو له النفوس، وتتطلع إليه دائماً وأبداً.

جاء ذكر هذا الحديث بطريق الاستفهام في قوله (أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل منه كل يوم خمساً، ماتقول ذلك يبقى من درنه؟)، وليس الغرض من هذا الاستفهام طلب الفهم أو العلم بالشيء، بل دلّ الاستفهام على غرض آخر، هو التقرير^(١)، فما الأسرار البلاغية، والنكت البيانية التي احتواها هذا الحديث حينما جاء بهذه الصورة، وبهذا الغرض؟

كان بإمكانه ﷺ أن يذكر مضمون هذا الحديث بأسلوب خبري مباشر، يبين لهم فيه فضل الصلوات الخمس، وأثر المحافظة عليها، وأنها سبب لتكفير الخطايا والذنوب، ولو حدث هذا الأمر بهذا الأسلوب لحصل منه المقصود، وتمّ به المراد، ولكنه ﷺ - وهو من هو في الفصاحة والبلاغة لم يسلك هذا المسلك - بل أثر في بيانه لهذا الأمر مسلكاً آخر، يشدُّ من خلاله انتباه السامعين، ويُلَفِت أنظارهم إليه، ومن هنا جاء الاستفهام ليتنبه إليه المخاطبون، وتتحرك مشاعرهم نحوه، بعدما أثار كوامن نفوسهم؛ ليكون منهم بعد هذه الإثارة الاستجابة له، بعد أن يدركوا مراده من هذا الاستفهام، ويقروا به، ويسلموا.

ومما زاد من بلاغة هذا الاستفهام وزانه أن كان الغرض منه التقرير، وهو - كما عرّفه البلاغيون -: « حملك المخاطب على الإقرار بما يعرفه وإجائه إليه »^(٢) وتكمن بلاغة هذا الغرض أن فيه تنبيهاً للمخاطب، وإيقاظاً لمشاعره لما سيلقى إليه، فيتوجه بقلبه وسمعه إليه، فيصغي له؛ لأن ما يُذكر بعدها معان مهمة، يهتم بها، ويُعنى بشأنها، فحينها تقرر تلك المعاني في قلبه، وتتمكن أفضل تمكن، ويقوى حرصه عليها، وعلى التمثل بها، والاستجابة لها، بعد أن أقر بهذه المعاني، وقرت في ذهنه ووجدانه.

ومما لاشك فيه أن الأمر الذي دلهم عليه رسول الله ﷺ في هذا الحديث أمر عظيم، هو من الدين بمكان، ومن هنا كان حرصه ﷺ على أن يسلك هذا المسلك في ذكره، والتعبير عنه؛ بغية تشويقهم إليه، وتحبيبهم فيه، ولا شك - كذلك - «أن هذه المعاني تقرُّ عندئذ في النفوس، وتثبت في الوجدان؛ لأنها

(١) انظر: عمدة القارئ: ١٥٨/٤، فتح الباري: ١٥/٢

(٢) مختصر التفتازاني على تلخيص المفتاح: ٢٩٤/٢ .

أُقيمت إلى المخاطبين بعد أن نُبهوا لها، وهيئوا لتلقيها، وأخذوا يتطلعون إلى معرفتها، والوقوف عليها، فالنبي ﷺ يقصد بهذا التشويق إلى أن يُمكن لتلك المعاني في النفوس حتى اشتد الحرص على امتثالها، وتحقيق ما يكمن وراءها من أغراض ((١).

وقد تمكن النبي ﷺ من تلك النفوس، حين عرض عليها الحديث بهذه الأسلوب، فقد تمكن منها، وجعلها ترنو متلهفة متعطشة لمعرفة هذا الأمر، وجعلها تنقاد لهذه الحقيقة، وتقرُّ بها، ولا أدل على ذلك كله من قولهم في الإجابة (لا يبقى من درنه شيء) ففي هذه الإجابة الدلالة على الإقرار التام من الصحابة ﷺ بهذه الحقيقة، وتأكيدها إذ لم يكتفوا بالإجابة عن هذا السؤال بقولهم "لا"، بل أعادوا لفظ السؤال كله؛ إقراراً بها، وتأكيدها لها. (٢)

وبعد هذا الإقرار من صحابة رسول الله ﷺ، والإذعان التام لهذه الحقيقة ذكر لهم رسول الله ﷺ غرضه من ذلك الاستفهام، والحقيقة التي أراد تقريرها في نفوسهم في قوله (فذلك مثل الصلوات الخمس يحو الله به الخطايا) .

والفاء في قوله "فذلك" واقعة في جواب شرط محذوف، وتقديره: إذا أقرتم بذلك، وصح عندكم وتيقنتموه فهو مثل الصلوات الخمس سواء بسواء. (٣)

والأمر الذي دلهم عليهم رسول الله ﷺ، وأقرهم به عمل عظيم، فالصلاة عمود الدين، ولا حظ في الإسلام لمن ضيعها، ومن ثم فقد كان هذا العمل جديراً بأن تنهياً له النفوس، وتنقاد له إقراراً به وتسليماً، ومن هنا سلك رسول الله ﷺ هذا المسلك في الإخبار عنه؛ بغية تثبيته في نفوسهم، ليشدد حرصهم عليه، ورغبتهم فيه؛ ليسارعوا بعد ذلك في الاستجابة له، والعمل فيه، ولهذه الأغراض كلها ذكره رسول الله ﷺ، وحث عليه بهذا الأسلوب الأسر الذي يشهد بحسن منطقته، وعلو كعبه في الفصاحة والبلاغة، فحين نعم النظر في بيانه ﷺ في هذا الحديث تأملاً وتدبراً ندرك مستوى هذا البيان النبوي وفصاحته.

فنلاحظ في هذا الحديث: اختياره ﷺ للفظ "نهر" دون لفظ "البحر" في هذا السياق، وفي تنكيرها كذلك، وإيثار التعبير بها وبهذا الصيغة دلالات مرادة في هذا المقام، فهذه اللفظة "نهر" وحدها بتلك الدلالات هي التي تحقق الغرض المراد منها، فقد دلت على عذوبة ذلك الماء وصفائه، ففي النهر العذوبة

(١) التشويق في الحديث النبوي: ٨ .

(٢) انظر: المنهاج: ٢ / ١٧٦

(٣) انظر: عمدة القارئ: ٤ / ١٥٨ .

والصفاء، والرقّة والهدوء، فلا صخب ولا ضجيج، فلا تزعجك تلاطم الأمواج ولا هديرها، ولا يخفى أثر هذه الصورة في سياقها، وفي أداء المعنى المنوط بها، وفي نفوس المتلقين كذلك، فهي تُكسب المعنى ورنقاً وبهاءً، وتجعله أقوى أثراً وتأثيراً؛ إذ « لا ريب أن هناك فرقاً بين أن تفيض الكلمات بالمعاني والمقاصد، وأن تفيض بها الأحداث والصور، فرق بين ما تدل عليه لفظة "الشجاعة"، وما تدل عليه صورة "الأسد" ببطشه وإقدامه وبأسه وشدته، المعاني التي تفيض بها الأحداث والصور أغزر، وأبين، وأمكن »^(١).

كما دلّ التنكير على عظمته ومقداره، فهو نهر عظيم، وذلكم هو الذي يتوافق مع سياق الحديث الذي يراد به الترغيب في المحافظة على الصلوات الخمس في اليوم واللييلة، وقد تضافرت دلالة التنكير، وإيحاء اللفظة في بيان عظمة ذلك النهر وعدوبته، وفي هذا كشف لحقيقته، وبيان لكنهنه، فلا غرو بعد هذا - وتلك مكانته وحقيقته - ألا يبقى ذلك النهر شيئاً من درن من يغتسل فيه، فما الظن إذا كان الاغتسال فيه يتم خمس مرات في اليوم واللييلة؟

كما يدل على ذلك لفظة "يغتسل" حينما جاءت فعلاً مضارعاً، ففي هذه الصيغة دلالة على تجدد حدوث هذا الفعل، وتكرر وقوعه طرقي النهار، وزلفى من الليل، كما أن في فعلية هذه اللفظة استحضاراً لهذا العمل، وجعله ماثلاً أمام العيان، وكأنه يحدث الآن وقت الخطاب، وفي هذا مزيد إيضاح له وبيان؛ ليقر في أذهانهم وقد تبين أمره، وتبينت ملامحه وأجزاؤه .^(٢)

وقد بيّن رسول الله ﷺ في هذا الحديث أن هذا الرجل لا يغتسل من هذا النهر، وإنما يغتسل فيه، ولحرف الجر "في" دلالة المهمة في هذا السياق، فهي تدل على الظرفية، فقد تمكن النهر من الرجل تمكن الظرف من مظلوفه، وأحاط به من جميع جوانبه، فأنى له - والحالة هذه - أن يبقى شيئاً من درنه؟ كما أن لحرف الجر "الباء" في قوله (باب أحدكم) دلالة المهمة في هذا الحديث، ففيه دلالة على الالتصاق التام بين النهر والباب، حتى كأن الدار تجري من تحتها الأنهار^(٣)، وفي هذا دلالة على قرب هذا النهر منه، وسهولة وصوله إليه، فليس في طريقه إليه مشقة ولا كلفة، فهذا النهر الغمر جارٍ تحت بابه، فما أسرع ما يدرك بغيته، ويحصل مراده منه، ومن هنا سهل عليه تكرار الاغتسال في هذا النهر خمس مرات في اليوم واللييلة .

(١) التصوير البياني: ٢٢ .

(٢) انظر: من بلاغة الحديث الشريف: ٨٠ .

(٣) انظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية: ١٥٠ .

وقد تضمن الحديث تشبيهاً تمثيلاً، فقد شُبِهُت الصلاة الخمس التي تكفر الخطايا والذنوب بالنهر الغمر الذي لا يبقى درن من يغتسل فيه وأوساخه، بجامع التطهر في كلِّ، والإزالة التامة من كل ما يتعلق بالجسم مما يشينه، ويحط من شأنه وقدره. (١)

والغاية من هذا التشبيه: التوضيح والإفهام، وجعل المعقول كالمحسوس، فكما أن البدن تصيبه الأدران والأوساخ، ولا يزيلها إلا الاغتسال والتطهر، وهي حقيقة مقررة كما دل عليها، وقررها الاستفهام في هذا الحديث، فكذلك الصلوات الخمس، والمحافظة عليهن تحط الأوزار، وتكفر الخطايا والذنوب عن العباد . وينبغي مراعاة التماثل في الحالتين، فكما أن المرء يجهد نفسه في هذا الاغتسال، ويحرص عليه مواظبة ورعاية واهتماماً، فكذلك الصلوات الخمس ينبغي المحافظة عليها، والخشوع فيها، وإقامة أركانها وواجباتها وشروطها؛ لينال صاحبها بذلك الأجر، ويحصل له تكفير سيئاته وخطاياها، مهما بلغت ولو كانت مثل زبد البحر، يدل على هذا مجيء لفظة "الخطايا" جمعاً، ففيه إشارة إلى كثرة هذه الخطايا وتعددتها، فليست هي خطيئة أو خطيئتين، وإنما هي خطايا، ومع ذلك فإن هذه الخطايا - على كثرتها - تُمحي وتغفر؛ بسبب المحافظة على الصلوات الخمس في وقتها، وأدائها على أكمل وجه .

كما أن مجيء لفظة "الخطايا" جمعاً إشارة - كذلك - إلى عظم هذا الجزاء، وجليل شأنه، وعظم منفعته للعبد، وعظم هذا الجزاء دلالة على عظم هذا العمل، ومنزلته في الإسلام، فالجزاء من جنس العمل، وفي هذا ترغيب وحث بالإتيان بهذا العمل، والقيام به، ومن هنا يتبين لنا بلاغة هذا الجمع ودلالته في هذا الحديث .

وبعد: فمن خلال تأمل هذا الحديث، والغوص في دقائقه وأسراره يتبين لنا عظم هذه المعاني التي نبه إليها رسول الله ﷺ، وشوق أصحابه إليها؛ ليقروا بها ويسلموا، ولم يكن هذا التقرير - على أهميته - مقصوداً لذاته، بل كان يهدف منه تنبيههم إلى هذا العمل الجليل، وإثارة مشاعرهم نحوه، لتتمكن في نفوسهم، ومن ثم يشند حرصهم عليه، وتحسن استجابتهم لها. (٢)

ولم تكن هذه الصورة البيانية المشرقة مرادة لذاتها، بل أراد أن يوظف رسول الله ﷺ هذه الصورة الجميلة والمحبة إلى النفوس في الترغيب بالصلاة، والمواظبة عليها، بعد أن قرر من خلال أسلوب الاستفهام أن

(١) انظر: أثر التشبيه في تصوير المعنى: ٩٧ .

(٢) انظر: التشويق في الحديث النبوي: ٧٢ .

للصلاة أثراً على الجسم والقلب، كما أن لهذا النهر الأثر على الجسم، فهو يزيل ما يعلق به من الأدران، والصلاة تزيل كل ما يعلق بقلب المؤمن وقلبه، فتطهر قلبه، وتزكي نفسه.

الحديث الثالث:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: (ينزل ربنا - تبارك وتعالى - كل ليلة إلى سماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟).^(١)

في هذا الحديث حثٌ على قيام الليل، وتحريض عليه، وقد جاء هذا الحثُّ بأسلوب غير مباشر، وذلك من خلال بيان فضل هذا العمل، وذكر ما يترتب عليه من الثواب الجزيل، والأجر العظيم، وهل ثمة أعظم من إجابة دعوة الداعي، وإعطاء السائل سؤاله، ومغفرة الذنوب؟ أمور عظام يريدونها كل مسلم لنفسه ويتمناها.

ولعظم هذا العمل المرغَّب فيه جاء أسلوب الحديث كله متوافقاً مع عظم مضمونه، ومتلائماً معه، وذلك حين أخذ من أسلوب الاستفهام سبيلاً لتحقيق هذه المعاني، وتقريرها في النفوس، ومن ثم الحض على فعلها، والحث على المداومة عليها.

فقد ذكر رسول الله ﷺ عن ربه - عزَّ وجل - أنه ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا في ثلث الليل الآخر، ويقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟، وقد توالى الاستفهام في هذا الحديث، وتكرر ثلاث مرات؛ وذلك لِمَا يتضمنه هذا الأسلوب من التأثير في النفوس، والنفوذ إلى أعماقها، فمن ذا الذي يسمع هذه الاستفهامات - وهي تطرق سمعه، وتخطب عقله ووجدانه - ثم لا تتحرك أشواقه، ولا تهتز مشاعره وأركانه؟ استجابة للداعي، ورغبة في هذا العمل، والقيام به، كيف والداعي هو الله - سبحانه وتعالى -؟ الذي لا يخلف وعده، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، كيف وهو يرغب بأمر هي من الأهمية بمكان، لها خطرها وشأنها في حياة المسلم، فهو وعد منه - سبحانه - بأن يستجيب للداعي، وأن يعطي السائل، وأن يغفر للمستغفر، وليس وراء هذه الغايات مطمع للعبد في دنياه يسعى إليها، فيالفوز من يحققها، ويسعى في تحقيقها.

ولعظم هذه المعاني، ورفعة شأنها، تمَّ التعبير عنها، والحث عليها من خلال أسلوب الاستفهام؛ لِمَا لهذا الأسلوب من التأثير، ولِمَا يتضمنه من الدلالات، ولعل هذا هو السرُّ في إثارة أسلوب الاستفهام في هذا

(١) فتح الباري: ٣/٣٥، برقم: ١١٤٥.

المقام دون ذكرها، والحث عليها بأسلوب آخر أياً ما كان، وشتان شتان بين ورود هذا الحديث، والتعبير عنه بأسلوب الاستفهام، وبين وروده بأي أسلوب آخر، كالأمر مثلاً، فسيكون الحديث على هذا النحو: ادعوني، أو اسألوني، أو استغفروني، فما أشد تباين هذين الأسلوبين، وما أشد اختلاف أثرهما وتأثيرهما على المخاطبين بها، ومن هنا يظهر السرُّ في إثثار أسلوب الاستفهام في التعبير عن هذه المعاني، والحث عليها، ومنه يظهر كذلك بلاغة أسلوب الاستفهام، وقيمتها التعبيرية والجمالية في أداء المعاني المنوطة به، والدلالة عليها .

وكم من مستجيب لهذا الترغيب، ينتظر قدوم ثلث الليل الآخر في كل ليلة؛ ليقف بين يدي ربه - عزَّ وجل - راکعاً وساجداً، يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه؟ وكم من الناس - وهم كثير - من يمرُّ عليه هذا الوقت، وهو غارق في نومه، مفوت هذا الوقت الفاضل؟ ولعل هذا هو السرُّ في كون وقت النزول هو آخر الليل، حين يبقى ثلثه؛ وذلك أن هذا الوقت «وقت غفلة، وخلوة، واستغراق في النوم، واستلذاذ به، ومفارقة اللذة، والدعة صعب، ولا سيما أهل الرفاهية، وفي زمن البرد، وكذا أهل التعب، ولا سيما في قصر الليل، فمن آثر القيام لمناجاة ربه، والتضرع إليه مع ذلك، دلَّ على خلوص نيته، وصحة رغبته فيما عند ربه، فلذلك نبه الله عباده على الدعاء في هذا الوقت الذي تخلو فيه النفس من خواطر الدنيا وعلقها؛ ليستشعر العبد الجدَّ والإخلاص لربه» (١) .

ومن رحمة الله بعباده أن بيّن لهم الأجر المترتب على أعمالهم، وفي ذلك ترفق بحالهم، وحث لهم على العمل، والقيام به، وقد تجلّى هذا الأمر جلياً في هذا الحديث.

ولربط العمل المرعَّب فيه بالأجر المترتب عليه دلالة يحسُن الإشارة إليها في هذا المقام، وهو أن في هذا الربط مراعاة لما طُبعت عليه النفس البشرية من طلب العوض والمقابل لما تقوم به من أعمال تُنشط بها، فحتى تُقدّم هذه النفس على العمل، وتقبل عليه نشطة تُرغب بذكر ما ستنال من الأمور المحببة لها جراء هذا العمل، فيهون عليها ما يعترض لها من مشاق ومتاعب، ويكون ذلك دافعاً لها لتحمل الشدائد والمصاعب الناتجة من الأعمال التي تقوم بها، فهذا أمر جُبلت عليه النفس البشرية، ومركوز في طباعها، ومن هنا فإن ذكر الأجر المترتب على الأعمال يجعلها تقدم ولا تحجم، وتقبل ولا تدبر عن مشاق الأمور وعسيرها.

(١) فتح الباري: ١١/١٣٣ .

وهو منهج قرآني، فكثيراً ما تُربط الأعمال بالأجور المترتبة عليها؛ ترغيباً فيها، وتطويحاً للنفس الجموح التي تريد العوض، وترغب بالتملك، وقد سلك النبي ﷺ هذا المسلك، وسار على هذا النهج في ترغيبه من خلال الجملة الاستفهامية، حين ربط بين العمل والأجر المترتب عليه من الأجر الجزيل، والثواب العظيم .
الحديث الرابع:

حديث سهل رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (إن في الجنة باباً، يُقال له الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل منه أحد غيرهم، يُقال: أين الصائمون؟ فيقومون، لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أُغلق فلم يدخل منه أحد).^(١)

يرغب النبي ﷺ أمته في هذا الحديث بالصيام، والإكثار منه، ولم يسلك في هذا الحديث أسلوباً مباشراً في حثهم وتحريضهم على الصيام، بل سلك مسلكاً آخر يؤدي الغرض، ويحمل النفوس على الإقبال على الصيام، والاستزادة منه، وذلك حين بيّن ما أعده الله في الآخرة من الأجر والفضل للصائمين .
وقد ذكر رسول الله ﷺ هذا الفضل، وتمّ بيانه من خلال الاستفهام في قوله ﷺ (أين الصائمون)؟، وكما هو معلوم أن مكانهم ليس خافياً حتى يُسأل عنه، كما أن أمرهم كذلك ليس مجهولاً فيُستفهم عنه، ولكن خلف هذا الاستفهام شيئاً آخر، وهو الأمر الذي أراد رسول الله ﷺ أن يحققه من خلال هذا الاستفهام، فقد أُريد من هذا الأسلوب لفت أنظار الناس جميعاً في ذلك الموقف إلى فضل هؤلاء الصائمين، والإشارة كذلك إلى منزلتهم، ومزيتهم على ما سواهم من الناس أجمعين، وهل أدل على هذه المنزلة، وتلك المكانة أن كان في الجنة باب خاص بهم، لا يدخل منه أحد سواهم؟ فإذا دخل منه هؤلاء الصائمون، وتكاملوا بالدخول منه أُغلق، فلا يدخل منه أحد غيرهم .

ولك أن تنعم النظر تأملاً في هذه التسمية "الريان"، فل هذه اللفظة دلالاتها وإيحاءاتها المراد تحقيقها، ولفت الأنظار إليها؛ لتلتفت نحوها، وتقبل عليها، فقد اشتقت من الري، فهي مناسبة لحال الصائمين، الذين تكبدوا ظمأ الهواجر، فبلغ بهم العطش مبلغاً عظيماً، فهاهم اليوم يُجازون الجزء الأوفى حين يدخلون الجنة من باب الريان؛ إشارة إلى ما ينتظرهم من الأنهار التي سيرتوون منها، ويتلذذون بها، وينعمون بالشراب منها، إذن فقد تضمنت لفظة "الريان" الإشارة إلى ما كانوا عليه في الدنيا من الظمأ والنصب، كما أن فيها الإشارة كذلك إلى ما آل إليه أمرهم من الري والارتواء .

(١) فتح الباري: ٤/١٣٣، برقم: ١٨٩٦، صحيح مسلم: ٨٠٨/٢، برقم: ١٦٦ .

وتكاد تكون لفظة "الريان" واسطة العقد في هذا الحديث؛ وذلك أن لها إيجاء وظلالاً لا يخفى، وبريقاً ينشر شعاعه في أجواء الحديث كله، فإن لها دلالات وإيجاءات، إذ لم يأت اختيارها عبثاً، بل كان لاختيارها دلالات وإشارات مراد تحقيقها في هذا المقام، فحين نتأمل هذه اللفظة ودلالاتها نجد أن ثمة ارتباطاً وثيقاً بينها وبين معناها، فـ"الريان" مشتق من الري، ففيه إشارة إلى الحال الذي يؤول إليه الصائمون في الجنة من الارتواء، وكيف لا يرتوون وهم يتنعمون، ويتلذذون بنهر من ماء غير آسن، وآخر من لبن لم يتغير طعمه، وثالث من خمر لذة للشاربين، ورابع من عسل مصفى، فأنى أن يجد العطش سبيلاً إليهم وهذه الأنهار تجري من تحتهم؟

كما أن فيها إشارة من طرف خفي إلى الحالة التي كانوا عليها في الدنيا، وهو الظم الشديد، فقد تحملوا ظمماً الهواجر؛ تقريباً إليه - سبحانه - بالصيام، فقد أكثروا من الصيام حتى عُرفوا به، وهامهم يُجازون على ذلك الجزاء الأوفى، ويُدعون إلى دخول الجنة من باب "الريان"، ولا أعلى ولا أفضل من هذا التكريم والتشريف أن يكون هذا الباب مقصوراً عليهم، فلا يدخل منه أحد غيرهم .

وبعد: فهذه دلالة هذه اللفظة، وتلك بلاغتها، إلا أنها ليست مرادة لذاتها، بل أراد ﷺ من إيرادها في هذا السياق حث النفوس، وحملها على هذه الطاعة، والإكثار منها، فقد أراد من ذلك ترغيبهم بهذه الطاعة، وتحبيبهم فيها، حين بين ما أعد الله للصائمين في الآخرة من الجزاء الأوفى، والأجر الجزيل، جزاءً وفاقاً.

ولا يخفى أن تخصيص هذا الباب بالصائمين دون غيرهم أن في ذلك مزيداً من الكرامة بهم، والحفاوة بشأنهم، فقد حُصوا بالدخول من هذا الباب، وقُصر عليهم؛ لأنهم عُرفوا به في الدنيا، واشتهروا به؛ لكثرة صيامهم، ومن هنا جاء تخصيصهم بهذا الباب، فجعل مقصوراً عليهم «حتى لا يُزاحموا فيه، وإن كانت لا مزاحمة في الحقيقة في أبواب الجنة؛ لسعتها، وأنه ليس بموضع ضرر ولا عنت ولا مشقة» .^(١)

ولم يكن الإخبار عن هذا الباب، ولا الإشارة إلى قصره على الصائمين، ولا الاستفهام كذلك في قوله (أين الصائمون)؟ لم يكن هذا كله مراداً لذاته، ولا مقصوداً بعينه، تقف عنده المعاني فلا تتطلع النفوس إلى ما بعده، ولكن المراد من ذلك كله هو الحث والتحريض على الصيام، والإكثار منه، حتى يُعرف المرء به، ويكون من أهله، فيدعى يوم القيامة لدخول الجنة من باب "الريان"، ومن ذا الذي يسمع هذا الأجر العظيم، ثم لا تتحرك أشواقه، ولا تنشط أركانه لهذا العمل، والإقبال عليه؟ ومن هنا جاء الاستفهام في

(١) إكمال المعلم بفوائد مسلم : ١١٤/٤

هذا السياق ليدل على هذا المعنى، ويؤكدده، وليأخذ هذه النفوس، ويحملها على هذه الأعمال، والمواظبة عليها.

الحديث الخامس:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (أتدرون من المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طُرح في النار).^(١)

أراد صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث أن يذكر للصحابة رضي الله عنهم من هو المفلس حقيقة؛ رغبة منه في أن يحدد لهم المفهوم الحقيقي للإفلاس، فكان سبيله في تحقيق هذا الأمر أسلوب الاستفهام، فسألهم قائلاً: (أتدرون من المفلس؟)، فأجابوه بما هو مقرر لديهم، ومتعارف عندهم بأنه (الذي لا درهم له ولا متاع) بيد أنه صلى الله عليه وسلم يرد من هذا السؤال أن يُعلموه من هو المفلس في نظرهم وفي عرفهم؛ ولكن أراد من هذا السؤال تشويقهم إلى ما سيذكر بعد هذا الاستفهام؛ ليتمكن في نفوسهم أشد التمكن، وليستقر في أعماقهم؛ ليتبينوا من هو المفلس حقيقة.

وبعد أن أجاب الصحابة رضي الله عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكروا من هو المفلس، على حسب ما هو معروف لديهم، ومقرر عندهم، بعد هذا اشترأت أعناقهم نحوه ليتبينوا منه الأمر، ويعلموا منه من هو المفلس الذي سأل عنه، وهذا هو الغرض الذي أراد صلى الله عليه وسلم تحقيقه من هذا الاستفهام، فهاهم يتطلعون إلى بيانه لحقيقة المفلس، فقد أثار هذا السؤال كوامن وجدانهم، ومواطن الحسّ فيهم، ونبه عقولهم فهاهم يتطلعون إليه تشوقاً وتلهفاً لمعرفة من هو المفلس، فحين استولى رسول الله صلى الله عليه وسلم على مشاعرهم، وتمكن من حواسهم بعد أن أثار شوقها، حينئذ ذكر لهم من هو المفلس حقيقة في قوله صلى الله عليه وسلم (إن المفلس من أمتي من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي وقد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فيُعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطُرحت عليه، ثم طُرح في النار).

(١) صحيح مسلم: ٤/١٩٩٧، برقم: ٥٩ .

جاء الخبر مؤكداً بـ"إن"، وفي هذا التأكيد دلالة على أن لهذا الخبر (أهمية عظمى، فالترقب وشد الانتباه حاصل لمعرفة الإجابة بشوق زائد، خاصة أن المفهوم المؤلف لديهم قد استفرغوه في إجاباتهم، أما وإن هناك معنى آخر لا يفهمونه فإنه مثار العجب، ولذا فإن تأكيد هنا يزيد من قوة التلهف على المعرفة).^(١) والمتأمل لهذا الحديث يجد أن رسول الله ﷺ استعمل اسم الإشارة "هذا" كثيراً في هذا الحديث، وفي هذا دلالة على أن أصحاب هذه المظالم قريبون جداً من هذا الذي ظلمهم، وشتهم، وأكل مالهم، فقد أحاطوا به إحاطة السوار بالمعصم؛ بغية الاقتصاص منه، وأخذ حقوقهم منه، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإن هذا الرجل وأفعاله غير خافية على أحد، بل هي من الشهرة بمكان، إذ يشار إليها .

إذن فهذا هو الإفلاس الحقيقي الذي لا علاقة له بالمال ولا بالمتاع من قريب ولا من بعيد، وإنما علاقته الوثيقة، وصلته المتينة بالحسنات والسيئات، فالإفلاس الحقيقي أن يكون المرء مفلساً من الحسنات يوم القيامة .

وإنه لأمر محزن حقاً، وداعٍ للأسى والحسرة والأسف أن يجمع الإنسان هذه الحسنات في دنياه، ولكنها تذهب في الآخرة إلى خصومه في أشد ما يكون حاجة إليها؛ بسبب شتمه لهم، وأكله أموالهم، وسفكه دماءهم، فقد عمل كثيراً من الأعمال الصالحة من صلاة وصيام وزكاة، ولكن الناس لم يسلموا من شره، فقد طاهم أذاه، واعتدى عليهم بالسب والشتم، وأكل أموالهم، فتذهب حسناته تلك هباء منثوراً؛ حين يروح أجرها وثوابها إلى خصومه، وليت الأمر يقف عند هذا الأمر - وما هو بهين - بل تزداد حسرته، ويطول ندمه، حين تفتى حسناته، قبل الانتهاء من الاقتصاص منه، فحينها تُطرح عليه سيئات خصومه، فيؤخذ بجريرة أعمال ما ارتكبها، ولا اقتترفها يداه؛ ولكنه الجزاء الأوفى، وما ربك بظلام للعبيد، ولن يكون مصيره بعد هذا إلا النار، فيُطرح فيها.

وفي قوله (طُرح عليه) استعارة تبعية، فقد شُبّهت الخطايا والآثام بالحمل الثقيل الذي تحمله الدابة، وتنوء بحمله، فتجد في حمله المشقة والعنت، بجامع المشقة والتعب، ثم استُعير لفظ "الطرح" للحمل الثقيل، واشتُق منه لفظ "طُرح" على سبيل الاستعارة التصريحية التبعية، فكأن هذه الذنوب والآثام تُحمل عن ظهر المظلوم لتلقى على ظهر الظالم، فتزداد حينها آلامه وأثقاله، كما أن التعبير بالطرح إشارة إلى أن

(١) مشاهد القيامة في الحديث النبوي: ٤٢٤ .

هذه الأعمال حينما أُلقيت عليه أعيته، وأعجزته، وقضت عليه، ثم يُطرح بعد ذلك في جهنم جزاء أعماله السيئة التي اقترفها في دنياه حين شتم وسب، وقذف، وأكل ظلماً. (١)

إذن فهذا هو المفلس الحقيقي الذي شوق ﷺ أصحابه لمعرفة، والوقوف على حقيقته، فسلك في تحقيق هذه الغاية أسلوب الاستفهام في قوله ﷺ (أتدرون من المفلس)؟ ولم يكن هذا الاستفهام، وذلك التشويق مقصوداً لذاته، بل أراد منه ﷺ تحذير الأمة كلها من ظلم الآخرين، والاعتداء عليهم بالسب والشتم، وسلب أموالهم، فقد حذر من مغبة هذه الأفعال؛ حتى لا يُلاقوا ذلك المصير المحتوم .

الحديث السادس:

حديث بريدة بن حصيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم، وما من رجل من القاعدين يخلف رجلاً من المجاهدين في أهله فيخونه فيهم إلا وقف له يوم القيامة فيأخذ من عمله ما شاء، فما ظنكم) ؟ (٢)

التأمل في هذا الحديث يتبين له أن المراد منه بيان حرمة نساء المجاهدين، والتغليظ الشديد فيمن يقتحم هذه الحرمة وينتهكها، وقد ذكر النبي ﷺ هذا المعنى وقرره أتم بيان في طريقة عرضه لهذا الحديث، من خلال هذا الأسلوب الذي سلكه في بيان هذا المعنى، لتحقيق ذلك الغرض.

يتجلى ذلك من خلال نظم الحديث كله، وسأشير إلى بعض ذلك، ولن أستطيع أن أوفيه حقه كله، ففي البدء بكلمة "حرمة" براعة استهلال، وفي هذا لفت للأذهان، وتنبية على أهمية ما سئل على عليهم بعد ذلك.

وتأمل الإضافة في قوله "نساء المجاهدين" تجد أنها موحية بعظم قدر هؤلاء النساء، وتميزهن عن غيرهن، فهن نساء رجال وهبوا أنفسهم رخيصة لهذا الدين، كلما سمعوا هيعة طاروا إليها تاركين الأهل والولد خلفهم ظهراً، فمن كان هذا حاله كان حرياً أن يُصان عرضه، وأن تُرعى حرمة، لا أن يدنس عرضه، أو أن يخونه خائن من ضعاف النفوس الذين تقاعست نفوسهم عن الجهاد، وضعفت أمام شهواتهم ونزواتهم، ولم يسيطروا عليها، بل انفلتت منهم زمام شهواتهم فقادهم ذلك إلى أن يخونوا المجاهدين في أعراضهم، وأن يحوموا حول نسائهم، وبئس العمل.

(١) من كنوز السنة: ١٧٦ .

(٢) صحيح مسلم: ١٥٠٨/٣، برقم: ١٣٩ .

ثم تأمل تشبيه حرمة هؤلاء النساء بجرمة الأمهات، تجده يحمل في طياته كل معاني الحرمة والتعظيم، ومن ذا الذي يقدم على هتك عرض أمه، فقد أفاد هذا التشبيه عظم هذه الحرمة، وبعدها عن الانتهاك، والقرب منها، أو الحوم حولها، يقول الإمام النووي - رحمه الله - في شرحه لقوله (حرمة نساء المجاهدين على القاعدين كحرمة أمهاتهم) يقول: «أفادت هذه الجملة شيئين: أحدهما: تحريم التعرض لهن بريئة من نظر محرم وخلوة، وحديث محرم، وغير ذلك، وثانيها: في برهن والإحسان إليهن، وقضاء حوائجهن التي لا يترتب عليها مفسدة، ولا يتوصل بها إلى ريبة ونحوها». (١)

ثم ختم ﷺ الحديث ببيان وعيد من خانن، فذكر جزاءه يوم القيامة في قوله (إلا وقف له يوم القيامة فيأخذ من عمله ما شاء فما ظنكم)؟، وهو موضع الشاهد الذي أزعجت هذا الحديث من أجله، فلا يخفى الحذف الذي تم في هذه الجملة الاستفهامية، ولحذفه أسرار بلاغية، ونكت بيانية أرادها ﷺ ليبين من خلالها حرمة نساء المجاهدين، وشدة إثم من يخونهم من القاعدين، تتجلى تلك الأسرار والنكت من خلال تقدير المحذوف من جملة المستفهم عنه، والسُر في ذلك أن تذهب النفس في تقديره كل مذهب، وتسلك في ذلك كل مسلك، أي فما تظنون أنه صانع به في ذلك الموقف العصيب في عرصات يوم القيامة؟ وقد مُكِّن منه ومن حسناته، يأخذ منها ما يشاء، وما تظنون أن يبقى من حسناته وهو أحوج ما يكون إلى الحسنة الواحدة؟ وهل تظنون به - وقد خانته في عرضه - أن يبقى له حسنة واحدة؟ أبداً لن يُبقي منها شيئاً، وغير ذلك من التقديرات المحذوف، وتلك التقديرات كلها - على تعددها - تتصافر فيما بينها لإبراز غرض الحديث الذي سيق من أجله، وهو بيان حرمة هؤلاء النساء، ولا يخفى دلالات هذا الحذف وبلاغته في هذا السياق، كما لا يخفى ارتباطه بموضوع الوعيد، وصلته به، وبيان ذلك: أن فيه إيهاماً بذلك المصير، والمآل الذي سيؤول إليه ذلك الخائن، وفي هذا الإيهام مزيد من التهويل والتعظيم، يتجلى ذلك من خلال تقدير ذلك المحذوف، وحينها تنثال علينا كثير من التقديرات المهولة التي تروع القلب، وتخلعه من مكانه؛ لفظاعتها وشدة هولها.

وقد حذف ﷺ هذا الجزء من الاستفهام ليقف المرء مع هذا الحديث تأملاً وتدبراً، ويسرح طرفه في هذه التقديرات كلها، وفي غيرها مما يتحملها المقام، ويتسع لها، ولو ذُكرت الجملة بتمامها لانهصر الذهن في الوعيد المذكور في الحديث، وهذا منافٍ للغرض الذي سيق له الحديث من أجله، ومن هنا تتبين

(١) المنهاج شرح صحيح مسلم بن حجاج: ٤٥/١٣ .

بلاغة الحذف ودلالاته في الجملة الاستفهامية، ففيه تهويل لذلك الفعل المشين، وتعظيم له، من خلال بيان عقوبته التي تنتظره، وعاقبته التي سيؤول إليها في الآخرة،

ومما تقدم يتبين لنا الوعيد الشديد بمن يخلف رجلاً من المجاهدين فيخونه في أهله، وقد توافر في هذا الحديث كثير من الأساليب البلاغية، وتنوعت، ومن ثم تضافرت فيما بينها ووظفت في إظهار معنى الوعيد وإبرازه.

ومن هنا تتجلى بلاغة أسلوب الاستفهام، ويتبين منه كذلك ارتباطه الوثيق بمعنى الوعيد والترهيب عن هذا العمل المشين، فقد تم من خلال هذا الحذف تهويل هذا العمل، وتعظيم له من خلال بيان العاقبة التي تنتظر من يقدم على هذا العمل في الآخرة.

وهكذا تلوح لنا بلاغته ﷺ في توظيفه لأسلوب الاستفهام، فقد جعله وسيلة في الدعوة إلى الله، واستخدمه في مقامات الترغيب والترهيب، ويتبين لنا من ذلك بلاغة هذا الأسلوب، وما ينطوي خلفه من الأسرار البلاغية التي تُوظف في أداء المعاني، وتحقيق الأغراض، وذلك هو المراد.

الحديث السابع:

حديث أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لتتبعن سنن من قبلكم، شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو سلكوا حجر ضب لسلكتموه، قلنا يارسول الله: اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟) (١)

شاهد الاستفهام في قوله ﷺ "فمن" فقد حُذف مدخول أداة الاستفهام؛ لوضوح المراد منه، ولدلالة المقصود عليه من سؤال الصحابة رضي الله عنهم ففي تقدم ما يدل عليه غنية عن ذكره مرة أخرى، وتقدير هذا المحذوف: ومن من الناس غير أولئك، أي اليهود والنصارى، الذين ورد ذكرهم في سؤال الصحابة رضي الله عنهم، فقد دلّ سياق الحديث كله على المراد، كما أن في طيات الحذف غصاً من شأن اليهود والنصارى، وخطاً من قدرهم - إن كان لهم قدر - فلسان رسول الله ﷺ أجل قدراً وشرفاً أن يتلفظ بهما في هذا المقام مقام تحذير الأمة من اتباعهما، واقتفاء أثرهما، فلحقارتهن ولمهانتهم ترفع لسانه ﷺ عن ذكرهم، فكيف بالأمة بعد هذا أن تقتفي أثرهم، وتتبع سننهم، ومن هنا تظهر بلاغة هذا الحذف، وتتجلى أسراره، فقد اتخذ رسول الله ﷺ وسيلة لتحقيق أغراضه، والوصول إلى أهدافه في تحذيره لهذه الأمة، وبيانه خطر اتباعهم و تقليدهم.

(١) فتح الباري: ٥٧١/٦ ، برقم: ٣٤٥٦ ، صحيح مسلم: ٢٠٥٤/٤ ، برقم: ٦ .

والغرض من الاستفهام في قوله ﷺ "فمن" - كما يذكر شرح الحديث - الإنكار^(١)، والذي يظهر لي - والله أعلم - أن الإنكار هنا يشمل أمرين: الأول: إنكار منه ﷺ للأمة المحمدية في اتباعها سنن من قبلها من اليهود والنصارى، كيف لا ينكر عليها ذلك الاتباع؟ وهي الأمة الرائدة التي تقود غيرها ولا تنقاد، أمة جعلها الله خير الأمم، فكيف يسهل عليها أن تترك هذه المكانة والمنزلة، ويهون عليها أمرها وشأنها فتتبع غيرها؟! فتكون في مؤخرة الركب .

وقد أظهر هذا الإنكارَ حسنُ نظم الحديث وبلاغته، تأمل قوله (لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، حتى لو سلكوا حجر ضب لسلكتموه) فقد صَوَّرَ ﷺ الاتباع أتم تصوير، وعرضه في أعلى صورة له تقريراً لهذه الحقيقية، وتنفيراً منها، وتصويراً دقيقاً لهذا الاتباع، يتجلى ذلك في قوله (شبراً بشبر، وذراعاً بذراع) فهي كناية عن شدة الموافقة لهم، واقتفاء أثرهم، وإن كان ذلك - كما يذكر النووي -^(٢) في المعاصي والمخالفات، وليس في الكفر وأصول الدين.

ووجه تخصيص جحر الضب بالاتباع هو: «شدة ضيق هذا الجحر وردائه، مع ذلك فإنهم - لاقتنائهم آثارهم، وابتاعهم طرائقهم - لو دخلوا في مثل هذا الضيق الردي لتبعوهم»^(٣).

الثاني: أن الإنكار في هذا الاستفهام متوجه إلى الصحابة ﷺ فكأنه ﷺ أنكر عليهم سؤالهم هذا، يتجلى إنكاره ﷺ من خلال تلك الإجابة المقتضبة جداً في قوله "فمن"، والمعنى: فَمَنْ من الناس غير هؤلاء حتى يكون اتباع منكم لغيرهم، وقد أظهر الإنكار، وأبرز المعنى الذي يريده رسول الله ﷺ من خلال حذفه لمدخل الأداة الاستفهامية، ومن هنا تتجلى لنا بلاغة هذا الحذف، وأثره البين في المقامات التي تتطلبها، فهو الوسيلة في تحقيق الغرض، وبيان المراد والمقصود.

وفي هذا الحديث معجزة صادقة لرسول الله ﷺ شاهدة بصدق نبوته، فقد آل أمر الأمة إلى ما أخبر، ووقع لها ما نهاها عنه وحذر، ولكنها السنن.

وحين ننظر في هذا الشاهد والذي قبله، ونتأمل الحذف الذي تم في الجملة الاستفهامية نجد أن الجملة الاستفهامية بقيت بعد الحذف على كلمة واحدة، وقد أشاد البلاغيون بهذا النوع من الحذف، وأشاروا إلى بلاغته وجزالته، يقول الدكتور محمد أبو محمد موسى: «ومن أحسن مواقع الحذف ما ترى الجملة فيه بقيت على كلمة واحدة، وقد يكون ذلك في سياق قوي مجلجل، فيزداد حسن هذا الحذف، انظر إلى

(١) انظر: فتح الباري: ٥٧٤/٦، عمدة القاري: ٩٨/١٣.

(٢) انظر: المنهاج: ٤٦١/١٦ .

(٣) فتح الباري: ٥٧٤/٦ .

قول الله - تعالى - في حكاية فرعون مع السحرة الذين آمنوا برب موسى وهارون، قال فرعون لهم: ﴿ قَالَ ءَامَنْتُمْ لهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْتَمُونَ ۚ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْبَحَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ ﴾ (١) فأجابوه بعدما سمعوا قعقعة هذا الوعيد بقولهم: لا ضير، وأرادوا لا ضير علينا في قتلك، وحذفوا ليقى الجواب كلمة واحدة، نافذة كالسهم، يصمي نفاجة فرعون وحمقه، ويرد عليه إرعاده وإبراقه (٢).

ولا يخفى قوة هذا الأسلوب، وقد تمثل به رسول الله ﷺ خير تمثل، وتأثر به أبلغ الأثر، فجرى على لسانه، ووظفه في دعوته، وذكره في سياق الوعيد والتهديد؛ لغرض الترهيب والتنفير، ففي الشاهد الأول: تنفير من خيانة زوجات المجاهدين، والحووم حولها، وفي الثاني: ترهيب من اتباع الأمم الضالة، وقد تم هذا وذاك بأوجز لفظة، وأقصر عبارة، تضمنتها تلك الجمل الاستفهامية .

الحديث الثامن:

قوله ﷺ: (أو مخرجي هم)؟ في حديثه مع ورقة بن نوفل - حين أخبره ما رأى من نزول جبريل - عليه الصلاة والسلام - في بداية الوحي - فقال له ورقة: (هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، ياليتني فيها جذع، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فلما قال له رسول الله: أو مخرجي هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزرأ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي، وفتر الوحي). (٣)

جملة الاستفهام في هذا الشاهد في قوله (أو مخرجي هم) فهي جملة اسمية، وقد تقدم فيها الخبر وهو قوله "مخرجي" على المبتدأ "هم"، وفي هذا التقديم في الجملة الاستفهامية أسرار بلاغية جملة اقتضاها المقام الذي سيقى له هذه الجملة .

تتجلى تلك الأسرار البلاغية بالنظر إلى ما حوته اللفظة التي وليت همزة الاستفهام وهي قوله "مخرجي" فالذي أهم رسول الله ﷺ وأغمه أن يخرج من مكة، فمَحَطُّ الإنكار، أو التعجب هو الإخراج، بغض النظر أن يخرج كفار قريش أو غيرهم، أو على يد من يكون من سواهم، ومن هنا جاء هذا التقديم مشيراً إلى هذا المعنى، ودالاً عليه، ولو خلت هذه الجملة الاستفهامية من التقديم لكان السؤال: أهم مخرجي؟

(١) الشعراء: ٤٩ - ٥٠ .

(٢) خصائص التراكيب: ٢١٧ .

(٣) فتح الباري: ٣٠/١، رقم: ٣، صحيح مسلم: ١/١٣٩، رقم: ٢٥٢ .

(١) فهو لا يسأل عن إخراجها من مكة، ولا يابيه له، وكأن الذي عناه من ذلك: القوم الذين سيخرجونه من هم؟ فمكة لا تهمه، ولا قدر لها في نفسه، ومحال أن يكون هذا المعنى صحيحاً، ومن هنا جاء التقديم والتأخير في هذه الجملة الاستفهامية ليدفع تلك المعاني التي لا تصح ولا تثبت ولتقرر كثيراً من المعاني، ولتبين مدى حبه ﷺ لمكة، وشدة تألمه من إخراجها منها، ومع ذلك فقد دل التقديم في الجملة الاستفهامية في قوله (أو مخرجي هم) الأمرين معا: الإخراج والمخرج معاً، ولكن بسبب هذا التقديم فقد أولى الإخراج فضل عناية، ومن هنا فقد دلّ التقديم على كثير من المعاني، واشتمل على كثير من الأسرار، ففيه دلالة على تعجبه ﷺ من إخراجها من مكة، وإنكاره له، وحق له أن يتعجب من هذا الإخراج ويستبعده «إذ لم يكن فيه سبب يقتضي الإخراج؛ لما اشتمل عليه من مكارم الأخلاق التي تقدم من خديجة وصفها، وقد استدل ابن الدغنة بمثل تلك الأوصاف على أن أبا بكر لا يُخرج». (٢)

كما دلّ التقديم على حبه ﷺ لمكة، وشدة تعلقه بها، وقد ذكر ذلك السهيلي، وأشار إليه معنوياً بقوله (حب الرسول ﷺ وطنه)، وقد أفاد هذا المعنى من قوله ﷺ (أو مخرجي هم) يقول: «وذلك أنه قال لرسول الله لتكذبتنه، فلم يقل له النبي ﷺ شيئاً، ثم قال: ولتؤذيتنه، فلم يقل له شيئاً، ثم قال: ولتخرجتته، فقال: أو مخرجي هم؟ ففي هذا دليل على حب الوطن، وشدة مفارقتة على النفس، وأيضاً فإنه حرّم الله، وجوار بيته، وبلدة أبيه إسماعيل، فلذلك تحركت نفسه عند ذكر الخروج منه ما لم تتحرك قبل ذلك، فقال: (أو مخرجي هم)، والموضع الدال على تحرك النفس وتحرقها إدخال الواو بعد ألف الاستفهام، مع اختصاص الإخراج بالسؤال عنه، وذلك أن الواو تُرد إلى الكلام المتقدم، وتشعر المخاطب بأن الاستفهام على جهة الإنكار». (٣)

(١) أقول هذا القول افتراضاً؛ لأبين بلاغة التقديم والتأخير في الجملة الاستفهامية، وإلا فلا يصح لغة هذا التركيب، يقول ابن مالك: «ولا يجوز العكس؛ لأن مخرجي نكرة، فإن إضافته غير محضة، إذ هو اسم فاعل، بمعنى الاستقبال، فلا تتعرف بالإضافة، وإذا ثبت كونه نكرة لا يصح جعله مبتدأ؛ لئلا تخبر بالمعرفة عن النكرة دون مصحح»، (شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح: ١٣).

(٢) فتح الباري: ٣٦/١.

(٣) الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية لابن هشام: ٤١٣/١.

وقد استبعد ﷺ إخراجَه من الوطن الذي أحبه، ودرج عليه، إذ لم يكن منه فيما مضى، ولا فيما سيأتي سبب يقتضي هذا الخروج، بل كان كل ما فيه يدعو إلى البقاء، فقد كان جامعاً لأنواع المحاسن كلها المقتضية لبقائه بينهم، وإكرامه، بل إنزاله منهم منزل الروح من الجسد. (١)

وفي هذا دلالة على أن مكارم الأخلاق سبب للسلامة من كل مكروه، وأمان لصاحبه من الوقوع في المصائب، وإيذاء الناس له، فمن كثر خيره صفت عاقبته، وزُجي لصاحبها السلامة، والفوز في الدارين. (٢) أفاد ابن حجر من هذا التقديم معنى آخر، مبيناً أن إنكاره ﷺ لهذا الإخراج، وتعجبه منه لم يكن مقصوداً لذاته، بل أراد منه معنى آخر، يقول: «ويحتمل أن يكون إنزاعه كان من خشية فوات ما أمله من إيمان قومه بالله، وإنقاذهم به من ضرر الشرك، وأدناس الجاهلية، ومن عذاب الآخرة، وليتم له المراد من إرساله إليهم». (٣)

وهو معنى حسن، ولا ينافي الذي قبله، بل هما معاً كانا سبب تألمه ﷺ لخروجه من مكة، وإنكاره لذلك، وقد أشار ابن حجر إلى إمكانية الجمع بين القولين في قوله «ويحتمل أن يكون انزعج من الأمرين معاً». (٤)

وفيما تقدم من دلالات هذا التقديم وإيجاءاته تتجلى لنا بلاغة أسلوب التقديم والتأخير في الجملة الاستفهامية، وقد وظف ﷺ هذا الأسلوب، وتلك البلاغة، فجرت على لسانه، وبين من خلالها حبه الشديد لمكة، وعلوقه بها.

ولما رأى ورقة بن نوفل شدة تألمه ﷺ من ذلك وتفجعه، وإنكاره له وتعجبه، قال له مسلياً ومواسياً ليخفف عنه وطأة ألمه: (لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرأ مؤزرأ) وهذا من حكمة ورقة بن نوفل، ورجاحة عقله أن واساه بهذا القول وأنسه، وأمن مخافته، وأزال ما في نفسه.

وفي قوله (لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عُودي) بيان للسبب الحقيقي لإخراجه من مكة، وعداء أهلها له، لأنه ﷺ سيدعوهم إلى عبادة الله وحده، وترك عبادة الأصنام والأوثان، وترك كثير مما عاشوا عليه، وألفوه من العادات والعبادات، والناس كل الناس لا يجذبون من يدعوهم إلى مثل هذا، ولا

(١) انظر: إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: ٦٦/١ .

(٢) انظر: عمدة القاري: ٦٧/١ .

(٣) انظر: فتح الباري: ٣٧٦/١٢ .

(٤) فتح الباري: ٣٧٦/١٢ .

يرغبون به في كل زمان ومكان، إذ المرء مشدود إلى ما يألف، ومأسور به، ومن هنا فإنهم يناصرونه العدا، وينبذونه ويطردونه، وسيحدو هذا بكفار قريش إلى إخراجهم من مكة، ومعاداته وقتاله؛ لأن الدعوة بترك المألوف، والانتقال منه إلى غيره يوجب ذلك ويحتمه . (١)

الحديث التاسع:

قول الصحابة رضي الله عنهم: (يارسول الله: وإن لنا في البهائم أجراً؟ قال: في كل كبد^(٢) رطبة أجر) بعد أن ذكر لهم قصة الرجل من بني إسرائيل الذي سقى الكلب الذي يلهث، ويأكل الثرى من العطش، فشكر الله له، فغفر له . (٣)

الاستفهام في هذا الحديث في قول الصحابة رضي الله عنهم (وإن لنا في البهائم أجراً)، وقد تضمنت هذه الجملة تقديمًا وتأخيرًا، فقد تقدم خبر "إن" وهو قولهم "لنا"، وكذلك الجار والمجرور "في البهائم" على اسم "إن" وقد ارتبط هذا التقديم ودلالاته بالمعنى المراد تحقيقه من الجملة الاستفهامية، وبمعناه البلاغي؛ إذ التعجب هو المراد من الجملة الاستفهامية، فقد تعجب صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون لهم هذا الأجر الجزيل بسبب رحمتهم بالبهائم.

وقد دلَّ بناء الجملة الاستفهامية وتركيبها على هذا التعجب، بدءاً من حذف أداة الاستفهام، فكأن الدهشة عقدت ألسنتهم، وحالت بينهم وبين النطق بتلك الأداة، فأدى ذلك إلى حذفها، وذكر الجملة الاستفهامية بلا أداة ظاهرة، وانسحب ذلك - أيضاً - على تركيب الجملة الاستفهامية كلها وبنائها، فكان هذا التقديم والتأخير، ولم يكن تعجب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أن يكون الأجر لهم جزاء أعمالهم التي يقومون بها، كلا، فهم يعلمون علم اليقين أنه - سبحانه - لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ويعلمون أنهم يُجازون على أعمالهم إن خيراً وإن شراً، كما قال تعالى ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ (٧) (٨) (٤)، فهم لم يتعجبوا من قضية المجازاة على الأعمال، وثبوت الأجر عليها، يدل على ذلك تأخيرهم للفظه "أجراً" في الجملة الاستفهامية؛ لكونها قضية ثابتة مسلمة، لا جدال فيها، ولا تعجب منها.

(١) انظر: إرشاد الساري: ٦٧/١ .

(٢) يجوز في الكبد عدة لغات: فتح الكاف، وكسر الباء: كبد، وكسر الكاف، وسكون الباء: كبد، وفتح الكاف، وسكون الباء: كبد . انظر: مادة: كبد في لسان العرب، القاموس المحيط، إكمال الإعلام بتلخيص الكلام: ٣/٥٤٠ .

(٣) فتح الباري: ٥/٥٠، برقم: ٢٣٦٣، صحيح مسلم: ٤/١٧٦١، برقم: ١٥٣ .

(٤) الزلزلة: ٨.٧ .

ولكن الذي خفي عليهم، وتعجبوا منه كل العجب أن يكون لهم الأجر الجزيل، والجزاء الأوفى في البهائم، ومن هنا جاء التقديم في الجملة الاستفهامية ليدل على هذا المعنى القائم في نفوسهم، ويشير إليه، وهذا هو سرُّ تقديم خبر "إن" والجار المجرور بعده على اسم "إن"، ولولا هذا التقديم لما ظهر هذا المعنى، ولما اتضح الغرض من الاستفهام، ومن هنا تتجلى بلاغة التقديم في الجملة الاستفهامية، وأثره البالغ في الكشف عن معنى الاستفهام، وإباتته عن الغرض البلاغي.

ومما تقدم يتبين - كذلك - الارتباط الوثيق بين بنية الجملة الاستفهامية وتركيبها، وبين المعنى البلاغي للاستفهام، فالأول يمهد للثاني، فهو بمثابة التوطئة له والمقدمة، فبالنظر للمعنى البلاغي للجملة الاستفهامية يكون بناؤها، فيأتي التقديم والتأخير متجاوباً مع ذلك المعنى، ودالاً عليه وثمة رواية أخرى لهذه الجملة الاستفهامية، وهي قولهم (وإن لنا في هذه البهائم لأجرًا)؟^(١)، وقد تضمنت هذه الرواية - أيضاً - تقديماً وتأخيراً في الجملة الاستفهامية، ولكن هذه الرواية تضمنت مزيداً من أدوات التأكيد في الجملة الاستفهامية، فقد تضافرت أدوات التأكيد في الدلالة على هذا المعنى، والتعجب منه، فقد أكدتْ ب(إنَّ، واللام) في قولهم "لأجرًا"، وفي هذا تأكيد لهذا التعجب، ودلالة على تمكنه من نفوسهم، وسيطرته عليها، فضلاً عما في اسم الإشارة "هذه" من الزيادة في الدلالة على معنى التعجب القائم في نفوسهم .

وقد أجابهم رسول الله ﷺ إجابة شافية أزالت كل ما في نفوسهم من تعجب ودهشة، بقوله (في كل كبد رطبة أجر) فالأجر كائن في الإحسان إلى كل حيوان حي بسقي ونحوه، وذلكم هو مراده ﷺ بالكبد الرطبة؛ لكون الميت يجف جسمه وكبده، فرطوبة الكبد كناية عن الحياة .^(٢)

وقد أفاد الحديث الحث على الإحسان إلى الناس، فقد عُفرت ذنوب هذا الرجل بسقيه للكلب، وسقي المسلم، والإحسان إليه أعظم أجراً، وأكثر نفعاً.^(٣)

وفيه دلالة - كذلك - على ألا يحتقر أحد من المعروف شيئاً وإن قل، إذ لا يُدرى فيم تكون سعادة الإنسان في الدارين، وسبب نجاته، كما أن فيه دليلاً على أثر الإخلاص، وعظيم نفعه، فهو الموجب لقبول الأعمال، وترتب الأجر عليها، وكذلك كان حال هذا الرجل، فقد كان في البرية وحده، ولم يره

(١) صحيح مسلم: ٤/١٧٦١، برقم: ١٥٣ .

(٢) انظر: المنهاج: ٤٩٢/١٤ .

(٣) انظر: فتح الباري: ٥٢/٥ .

أحد وقت سقيه للكلب^(١)، ومن هنا كان جزاؤه عظيماً، وكان أن شكر الله فغفر الله له، وإنه لفضل عظيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم .

ولهذه الجملة الاستفهامية (وإن لنا في البهائم أجراً) نظير في القرآن الكريم، وذلك في قول سحرة فرعون ﴿أَيِّنَّا لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾^(٢)، فثمة توافق بين هاتين الجملتين في تركيب كل واحدة منهما، وذلك من خلال التقديم والتأخير الذي تمّ في بناء الجملة الاستفهامية، فقد تمّ في كلا الجملتين تقديم خبر "إنّ" على اسمها، وفي ذلك إشارة إلى الجزء المهم في هذه الجملة، الذي عُنوانوا به، واهتموا له، كما أن في ذلك توافقاً - أيضاً - في أدوات التأكيد في الجملة الاستفهامية في كلا الموضعين، فقد أكدت الجملتان (بِإِنَّ، واللام)؛ بغية التثبيت والتحقق من الأجر المترتب لهم على تلك الأفعال، كما أن بينهما توافقاً - كذلك - في تنكير لفظة "أجراً"، وقد أفاد تنكيرها التعظيم، فهم يرغبون من جراء هذه الأفعال بالأجر العظيم، والثواب الجزيل، ولكن شتان شتان بين هذين الأجرين، بين الأجر الذي يسأل عنه صحابة رسول الله ﷺ، فهم يطمعون بالأجر الجزيل من الله - عزّ وجل - إثر إحسانهم بالبهائم، فهم يرغبون بمرضاة الله - عزّ وجل -، ونيل الدرجات العلى في جنات عدن، بخلاف الأجر الذي طمع فيه سحرة فرعون، فقد طمعوا بالحظوة والمنزلة لدى فرعون، وأن يصدق عليهم من الفانيات من الأموال، والملذات، فشتان شتان.

الحديث العاشر:

قوله ﷺ (... أو ليس قد جعل الله لكم ما تتصدقون، إن بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة، قالوا: يا رسول الله أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه زور؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر).^(٣) **الأولى ذكر الحديث كاملاً**

أراد ﷺ في هذا الحديث ومن خلال الاستفهام في قوله (أو ليس قد جعل الله لكم ما تتصدقون) أن يلفت أنظارهم إلى أبواب الخير الكثيرة التي من خلالها ينافسون أهل الدثور، بل يسبقونهم، وهي أمور ميسرة، وفي متناول أيديهم، لا تكلفهم مشقة ولا مالاً، ولم يرد ﷺ أن يلفت أنظارهم إليها فحسب، بل

(١) انظر: دليل الفالحين: ٣٦٠/١ .

(٢) الشعراء: ٤١ .

(٣) صحيح مسلم ٦٩٧/٢، برقم: ٥٣ .

أراد أبعد من ذلك، أراد أن يحملهم على الإقرار بهذه الحقيقة، والنطق بها، أراد أن يتوصلوا إلى هذه الحقيقة من تلقاء أنفسهم، بعد تأملها، وسير أغوارها، ومن ثمَّ جاء الاستفهام المنفي بـ "أليس" لتحقيق هذه الأغراض، والدلالة عليها، ومن هنا يتبين دلالة هذا التركيب على معنى التقرير، ومدى تحقيقه له.

يرشد النبي ﷺ أمته في هذا الحديث إلى أعمال الخير، ويدلهم على طرق البر والرشاد، فذكر لهم جملة من الأعمال الصالحة التي ينال بها العبد الحسنات، ورفع الدرجات، فذكر التسبيح والتكبير والتحميد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وكان مما ذكره لهم أن (في بضع أحدهم صدقة) وقد استوقف هذا الأمر الصحابة رضي الله عنهم، وأثار عجبهم ودهشتهم .

فقد استبعدوا هذه الحقيقة وتعجبوا من ترتب الأجر الجزيل من هذا العمل؛ لما تقرر في نفوسهم من ترتب الأجر وحصوله من عبادة شاقة على النفس؛ لما فيها من مخالفة لهوى النفس ومشتياتها، أما أن يكون لهم الأجر من هذا الفعل المحبب إلى النفس الراغبة فيه فهذا ما تعجبوا منه، واستبعدوه. (١) فقد تملكهم هذا العجب، وتلك الدهشة، واستوقفهم ذلك الأمر فقادهم ذلك إلى سؤالهم رسول الله ﷺ، وقد عبروا عن هذه المعاني كلها بقولهم: (أيأتي أحدنا شهوته، ويكون له فيها أجر)؟، حقاً إنه لأمر عجاب، وقد دل الاستفهام على مدى التعجب الذي سيطر عليهم، وقام في نفوسهم،

وقد أدرك النبي ﷺ - من خلال استفهامهم هذا - عمق هذه الدهشة، وذلك التعجب الذي تملكهم، وسيطر عليهم، ولذا لجأ إلى أسلوب الاستفهام في محاورتهم؛ بغية إقناعهم، وإزالة كل ما علق في نفوسهم من دهشة وتعجب، قائلاً: (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في حلال كان له أجر)

لذا فلن يزيل هذا المعنى من نفوسهم إلا أن يستخدم رسول الله ﷺ الأسلوب نفسه، وأن يرد على استفهامهم باستفهام آخر، يبين لهم حقيقة الأمر، ويجلي لهم الأمور؛ ليظل إيجاب الاستفهام يتردد صداه في حنايا نفوسهم وزواياها إلى أن يتيقنوه، ويأخذوا به، ومن ثمَّ توجه إليهم قائلاً: أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر.

أراد ﷺ من خلال هذا الأسلوب أن يتوصلوا إلى النتيجة بأنفسهم، وأن يجزوه بها، بدلالة لفظة "أرأيتم"، وبعد ما تهيأت نفوسهم لتقبل هذه الحقيقة، بعدما أزال ما كان فيها من تعجب بادرهم

(١) انظر: المنهاج: ٣٥٠/١ .

بقوله: (فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر)، فكما يَأْتُمُ المرء في ارتكاب الحرام، فكذلك يُؤَجِرُ في الحلال.

صدَّرَ النبي ﷺ استفهامه هذا بقوله " أرأيتم "، وقد أراد ﷺ من ذلك أن يخبروه هم بهذه الحقيقة، وأن ينطقوا بها، يريد منهم أن يصلوا بأنفسهم إلى الاقتناع بهذه الأمور، وأن تستقر هذه الحقيقة في نفوسهم قراراً مكيناً، يزيل كل دهشة وتعجب.

واللافت في هذا الاستفهام أن النبي ﷺ طلب منهم - بدلالة لفظة " أرأيتم " - أن يخبروه بذلك، إلا أنه ﷺ لم ينتظر منهم الإجابة، فبادرهم إلى ذلك قائلاً: (فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر)؛ إدراكاً منه ﷺ لعظم التعجب والدهشة التي أحاطت بهم، فكأنه راعى ما في نفوسهم، فتابع عليهم حديثه، فساق لهم هذا الاستفهام، ثم أتبعه بهذه الجملة الخبرية؛ تأكيداً لهذه القضية، وإثباتاً لها، ومزيداً من سوق الحجج والإقناع التي ساقها لهم في بيان هذه الحقيقة .

الحديث الحادي عشر:

حديث هريرة رضي الله عنه قال: (سمعت رسول الله ﷺ يقول: يقبض الله الأرض، ويطوي السموات بيمينه، ثم يقول: أنا الملك، أين ملوك الأرض)؟^(١)

شاهد الاستفهام في هذا الحديث في قوله - عزَّ وجل - (أين ملوك الأرض)؟، والغرض من هذا الاستفهام: التحقير، وقد دلَّ سياق الحديث كله على هذا الغرض، وأرشد إليه، وبيان ذلك: أن كل ما تضمنه هذا الحديث من فعله - عزَّ وجل -، وقوله دالٌّ على عظمته - سبحانه -، وبالغ قدرته، فقبضه للأرض، وطويه للسموات بيمينه دلائل على عظمته، وشواهد قدرته وعزته، فهي أفعال عظام، وأمور جسام تدل على عظمته وقدرته - سبحانه وتعالى - .

ثم أعقب سبحانه هذا الفعل بقوله: أنا الملك، أين ملوك الأرض؟ وقد تضمن هذا القول جملتين مختلفتين في دلالة كل واحدة منهما، فالجملة الأولى: دالة على عظمته - سبحانه - وكمال ملكه، وأنه الملك الحق المتفرد بالملك، فهو الملك الحق، الذي لا يكون لأحد سواه، فهو مقصور عليه، وفي تعريف الطرفين في هذه الجملة دلالة على القصر، وتأكيد له.

ثم أتبع تلك الجملة بهذا الاستفهام (أين ملوك الأرض)؟، وفي هذا الاستفهام مزيد من إظهار عظمته - سبحانه -، وكمال ملكه؛ وذلك من خلال دلالة الاستفهام على التحقير، فبضدها تتبين الأشياء،

(١) فتح الباري: ٤١٣/٨، برقم: ٤٨١٢، صحيح مسلم: ٤/٢١٤٨، برقم: ٢٣ .

فذكر - سبحانه - حقارة ملوك الدنيا، فقلل - من خلال الاستفهام - من شأنهم، وحط من قدرهم، فهم أقل منزلة وقدرًا من أن يُذكروا مع عظمتهم - سبحانه وتعالى -، فهو المتفرد وحده بالملك والعظمة، فأين هم، وأين ملكهم؟ لقد زال ملكهم، وآل أمرهم إلى الزوال والفناء، فلا الملك باقٍ لهم، ولا المال، ولا الهيبة، ولا السلطان .

وفي الاستفهام عنهم في هذا المقام، دلالة على التحقير، وإشارة إليه، فكأنه يقول لهم: أيكون ملكاً من يزول ملكه؟ أيكون ملكاً من يفنى عمره؟ وتُقبض روحه؟ أيكون ملكاً من يُحشر في هذا الموقف دليلاً حقيراً مهيناً؟، كما أن فيه تذكيراً لهم بسالف عهدهم، وما كانوا فيه من النعيم والملك، وبما آل إليه أمرهم من الذل والهوان .

فُصلت الجملة الاستفهامية في قوله ﷺ (أين ملوك الأرض)؟ عن الجملة الأولى؛ وذلك لما بين الجملتين من كمال الانقطاع، فالجملة الأولى وهي قوله (أنا الملك) خبرية، والجملة الاستفهامية الثانية إنشائية، ولذا جاء الفصل بين هاتين الجملتين ليشير إلى ما بينهما من كمال الانقطاع .

كما أن في هذا الفصل إشارة إلى التباين التام بين ملكه - سبحانه وتعالى - الكامل الدائم الذي لا يحول ولا يزول، وبين ملك البشر الناقص الزائل، فشتان بينهما، فلا غرو - والحالة هذه - أن يكون بين هاتين الجملتين كمال الانقطاع في كل شيء، ومن هنا جاء الفصل بينهما للدلالة على هذا المعنى، والإشارة إليه .

ومن خلال ما تقدم يتبين أثر أسلوب الاستفهام وبلاغته في دلالاته على معنى التحقير، فقد أضفى هذا الأسلوب مزيداً من معاني الإيحاءات والدلالات على معنى التحقير، وتأكيديه .

ومما تجدر الإشارة إليه - في معرض الحديث عن غرض التحقير - أني لم أجد سوى هذا الشاهد في الدلالة على غرض التحقير في الصحيحين، فقد خلا الاستفهام في كلامه ﷺ من هذا الغرض، وفي هذا الأمر دلالة يحسن الإشارة إليها، والوقوف معها، فقد كان ﷺ أبعد الناس عن التحقير، فما كان يحتقر أحداً أبداً مهما كان قدره، فهو أعف لساناً، وأنبل خلقاً من أن يزدري أحداً، أو أن ينتقص من قدره، بل قد نَفَّرَ من ذلك، بل توعد من يقدم على هذا العمل، فقال ﷺ: (بحسب امرئ من الشر أن يحتقر أخاه المسلم)^(١)، وذكر أيضاً: (أن المسلم أخو المسلم لا يحقره، ولا يحسده)^(٢)، فما أبعد ﷺ من

(١) سنن الترمذي: ٤/٢٨٦، برقم: ١٩٢٧ .

(٢) صحيح مسلم: ٤/١٩٨٦، برقم: ٣٢ .

التحقير، وعلى هذا سار أصحابه رضي الله عنهم، فقد اقتفوا أثره، وساروا على نهجه، ومن هنا خلت شواهد الاستفهام في الصحيحين من هذا الغرض.

الحديث الثاني عشر:

حديث عبدالله بن الشخير رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت).^(١)

بيّن النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث حرص ابن آدم على المال، وجشعه عليه، وحبه له، وقد جاء التكرار في قوله صلى الله عليه وسلم (مالي مالي) دلالة على هذا المعنى، وإشارة إليه، فالمال هو الذي يهتم به، ويعتني بأمره، وله ينصب ويشقى، ومن أجله بذل واهتم واغتم، فهذا هو شأنه مع المال، وذلك ديدنه، فذلك حبه له، وتلك نظرته إليه، فهو لا يكلُّ في جمعه ولا يملُّ، ولا يتعب في تحصيله .

وفي مجيء لفظة " يقول " فعلاً مضارعاً إشارة إلى تكرار هذا القول منه، وتحدد حدوثه ووقوعه منه بين لحظة وأخرى بلا توقف أو انقطاع .

وبعد أن تم بيان حال ابن آدم مع المال، وحبه له، بيّن بعد ذلك حقيقة هذا المال، وبيان مدى نصيب ابن آدم منه، ومدى انتفاعه به، وبيان ما ينال ابن آدم منه في دنياه وأخراه، وذلك في قوله صلى الله عليه وسلم (وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت) .

والمعنى: «مالك من مالك إلا ما انتفعت به في دنياك بأن أكلت، أو لبست، أو أخرت بأن تصدقت، وما عدا ذلك من باقي المال فإنما أنت فيه بمنزلة الخادم الخازن لغيره، ففيه تحريض على الزهد عن جمع الدنيا، والإعراض عنها، وتحريض على الاقتصار على ما تدعو إليه ضرورة الحياة، وادخار ما عداه عند الله» .^(٢)

تمّ بيان هذه الحقيقة وتقريرها من خلال أسلوب الاستفهام في قوله صلى الله عليه وسلم (وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت)، ولا يخفى معنى الاستفهام ودلالته، فالغرض منه: النفي، ولكن في ذكر هذه الحقيقة وبيانها من خلال أسلوب الاستفهام تقرير لها وتمكين، وتحقيق لها في النفوس؛ وذلك لما يتضمنه هذا الأسلوب من إثارة للذهن، وتحريك للعقل، ولما يتطلبه من مشاركة المخاطب في الوصول إلى هذه الحقيقة، ومن ثم الاقتناع بمضمون الجملة الاستفهامية،

(١) صحيح مسلم: ٤/٢٢٧٣، رقم: ٣ .

(٢) دليل الفالحين: ٤٢٦/٢

والاهتداء بها، وحينها سينفك ابن آدم ويرتدع عن قوله: (مالي مالي) حين يتيقن حقيقة هذا المال، بعد أن توجه إليه المخاطب بالسؤال، ليقرّه بهذه الحقيقة، ويقرره بها .

وقد دلّ على معنى النفي وجود أداة الاستثناء " إلا "، وهي من أكبر الدلائل على إفادة أسلوب الاستفهام معنى النفي؛ وذلك لاجتماعها كثيراً مع " ما " النافية، كما أن ثمة رواية أخرى للحديث، تدل على غرض " النفي "، وتشير إليه، وهو قوله ﷺ (يقول ابن آدم مالي مالي، وإنما لك من مالك ما أكلت فأفريت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت)^(١)، وقد ذُكر معنى الحديث بأسلوب خبري، من خلال أسلوب القصر بـ " إنما "، ومعلوم أن طرق القصر ينوب بعضها بعضاً في الدلالة على القصر . كما أن في هذه الرواية قطع بهذه الحقيقة، وبيان لها، فقد تكون هذه الرواية أكثر وضوحاً من دلالة أسلوب الاستفهام على هذا المعنى، إلا أن هذه الروايات يُكمل بعضها بعضاً، وكل رواية تكشف جزءاً من المعنى، وتوضّحه، وعند النظر إلى الروايات جميعاً يكتمل المعنى، ويتضح المراد .

الحديث الثالث عشر:

حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كنا عند رسول الله ﷺ فضحك، فقال: هل تدرون مما أضحك؟ قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: من مخاطبة العبد ربه، يقول العبد: يارب، ألم تجرني من الظلم؟ قال: يقول: بلى، قال: فيقول: فيأني لا أُجيز على نفسي إلا شاهداً مني، قال: فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيداً، وبالكرام الكاتبين شهوداً، قال: فيختم على فيه، فيقال لأركانه: انطقي، قال: فتنتطق بأعماله، قال: ثم يخلى بينه وبين الكلام، قال: فيقول: بُعداً لكن وسُحقاً؛ فعنكرتُ كنتُ أناضل).^(٢) أراد النبي ﷺ في هذا الحديث أن يذكر لهم أمراً مهماً، وأن يلفت أنظارهم إلى أمر غيبي، بذكر مشهد من مشاهد يوم القيامة، وما يكون فيه من الجزاء والحساب، فسلك ﷺ في بيان هذا الأمر مسلكاً بلاغياً، استطاع من خلاله جذب الأنظار إليه، ولفت انتباه من حوله نحوه، وقد كان سبيله في ذلك أسلوب الاستفهام، وقد ضمنه معنى التشويق.

وقد تحقق التشويق في هذا الحديث بوسائل متعددة متنوعة، كما سأبين ذلك، فقد كان الصحابة رضي الله عنهم جلوساً عنده، وفجأة يستخدم ﷺ وسيلة حسية للتشويق، ولفت الأنظار، وهي ضحكه ﷺ، وما أقل

(١) صحيح مسلم: ٤/٢٢٧٣، برقم: ٤ .

(٢) صحيح مسلم: ٤/٢٢٨٠، برقم: ١٧ .

ضحكه، وندرته، فقد كان ضحكه ﷺ التبسم، لذا فقد استرعى ضحكه هذا انتباه من حوله، واشربأت أعناقهم نحوه متلهفة لتعرف سبب هذا الضحك وباعثه.

ثم زاد من تشوقهم، وأطال من ترقبهم وتلهفهم حين أتبع ضحكه ذلك بهذا الاستفهام (هل تدرّون مما أضحك)؟ وأنى لهم أن يعلموا سبب ضحكه، أو أن يقفوا على باعته، أو أن يحيطوا به خبراً؟ وقد كان ﷺ متيقناً أنهم لا علم لهم بذلك، ولا إحاطة بسببه، بل ما أراد منهم العلم، ولا انتظر منهم الإجابة عن هذا السؤال، إذ لم يكن يقصد من هذا الاستفهام طلب العلم أو المعرفة، بل أراد منه غرضاً آخر، وهو تشويق هذه النفوس، وإثارة وجدانها، وكوامن الإحساس فيها؛ لتقبل عليه متلهفة متشوقة تترقب الخبر منه، وتنتظره بكل شوق ولهفة .

فلما تمّ له ما أراد، وتمكن منها، وتحقق من إقبالها عليه، وشخصها نحوه، حينها ذكر لهم ما يريد، وبين لهم ذلك المشهد المؤثر العجيب الذي يكون بين العبد وربّه يوم القيامة، حين يقوم الناس لرب العالمين، للحساب والجزاء على ما اقترفته أيديهم .

وللدكتور عز الدين علي وقفة حسنة مع هذا الحديث، بين ما تضمنه من وسائل التشويق التي عمد إليها رسول الله ﷺ في هذا الحديث في ذكر هذا الموقف، وفي عرض هذا المشهد، يقول: «استعمل الرسول ﷺ في هذا الحديث وسيلة حسية تسترعى الانتباه، وهي الضحك المفاجئ دون أن يعلموا سببه، والمعروف أن ضحكه ﷺ كان تبسماً، وبعد يقظتهم إليه، سألم عن أمر يجهلونه زيادة في التشويق، واستحضاراً للقلوب، وهم أعقل من أن يجيئوه بما لم يعلموا، إذ هو أمر مرجعه إليه، إن القصة هي قصتهم، وهي قصة كل البشر، وهي مهمة للغاية؛ لأنها مصير محتوم لكل حي ينبغي الإعداد له قبل المباغتة، فيأيقاظ المخاطب بتلك الطريقة إليها دقة تبلغ المعجزة في طرق التعليم، وهي فضلاً عن ذلك قصة الغيب المرتقب، فهي أولى بأن يُهد لها هذا التمهيد المؤنس للنفس لتُنزل منزلة العظة والأناة» (١)

الحديث الرابع العشر:

حديث أنس رضي الله عنه يرفعه: (أن الله تعالى يقول: لأهون أهل النار عذاباً: لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفندي به؟ قال: نعم، قال: قد سألتك ما هو أهون من هذا، وأنت في صلب أهلك آدم ألا تشرك بي، فأبيت إلا الشرك). (٢)

(١) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية: ٣٥٤

(٢) فتح الباري: ٤١٩/٦، برقم: ٣٣٣٤ .

يذكر ﷺ في هذا الحديث عن ربه - عز وجل - أنه يخاطب أهون أهل النار عذاباً، يقول له: لو أن لك ما في الأرض من شيء أكنت تفتدي؟ ولا يخفى أن الغرض من هذا الاستفهام: توبيخ المخاطب وتبكيته على أن أشرك مع الله أحداً غيره، فال به الأمر إلى هذا الحال، والعذاب السرمد.

في هذا الاستفهام تذكير له بما كان عليه في حياته من الإشراف به، والإعراض عن دينه ومنهجه، يقول له من خلال هذا الاستفهام: أرايت ماذا جرّ عليك كفرك وعنادك؟ وهل رأيت الحال والمصير اللذين آل إليه أمرك في الآخرة أن كنت من أهل النار؟ ممن يُعذبون بها، ويذوقون فيها العذاب الأليم، فهل يسرك هذا الحال والمصير؟ وماذا لو كان لك ما في الأرض جميعاً أكنت تفتدي به خلاصاً وفكاً من النار؟ وهو - سبحانه - يعلم حال هذا الرجل ومصيره، ويعلم ما يكون منه لو كان له ما يفتدي به من هذا العذاب، وما ينتظر - سبحانه - منه إجابة عن هذا السؤال، إذ مراده من ذلك توبيخه، وتقريعه على إشراكه به في دنياه.

ومع ذلك فلم يتمالك هذا الرجل نفسه، ولم يتردد بالإجابة، قائلاً: "نعم"؛ ظناً منه أن هذه الإجابة ستنتفعه، أو تخفف عنه مصابه، أو ترفع عنه عذابه الذي أحاط به من كل جانب.

ومن ثم يُكذِّبه - سبحانه - ويبين حقيقة هذه النفوس التي جُبلت على الشرك والسوء في قوله - عز وجل - (قد سألتك ما هو أهون من هذا، وأنت في صلب أهلك آدم ألا تشرك بي، فأبيت إلا الشرك)، وهذا معنى قوله سبحانه ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا هُمْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾^(١).

دلّ على هذه المعاني كلها، وعبر عنها الاستفهام في هذا الحديث، بدلالته على التوبيخ والتقريع، وقد أبرز الاستفهام - بهذه الدلالة - «صورة لأهون أهل النار عذاباً، وإنها لتصور لنا ذلك الهلاك الشديد الذي يعانیه أهل النار، ففي الحديث حوار فحواه: أن الرجل مستعد ليفتدي نفسه بالدنيا وما فيها؛ لما يقاسيه من العذاب، ولا يبذل المرء مثل هذا البذل إلا أن يكون في شدة بالغة، وضنك أكيد، وقد جاءت الموعظة عقب ذلك بتقريع فيه عبرة لمن لا يزالون في الحياة، هذا التقريع هو قوله عز وجل (قد سألتك ما هو أهون من هذا، وأنت في صلب أهلك آدم ألا تشرك بي، فأبيت إلا الشرك)». ^(٢)

(١) الأنعام: ٢٨ .

(٢) التصوير الفني في الحديث النبوي: ١٩٠ .

وثمة رواية أخرى عند البخاري لهذه الجملة الاستفهامية، وهي قوله ﷺ (يُجاء بالكافر يوم القيامة، فيقال له: أرايت لو كان لك ملء الأرض ذهباً أكنت تفندي به؟ فيقول: نعم، فيقال له: قد كنت سُئلت ما هو أيسر من ذلك).^(١)

ونلاحظ في هذه الرواية اختلاف تركيبية الجملة الاستفهامية، وإن كان الغرض منها: التبكيث والتقريع والتوبيخ، وقد أدى بناء الجملة الاستفهامية إلى إظهار الغرض وتحقيقه؛ وذلك أن معنى قوله "أرايت" أي: أخبرني، بيد أن الله - عزَّ وجل - حين ألقى عليه الاستفهام لا ينتظر منه إجابة عن هذا السؤال، ولا يريد منه أن يتكلم، أو يخبره؛ إذ مراده من هذا الاستفهام: التبكيث والتقريع والتوبيخ على كفره به في الحياة الدنيا، وإعراضه عن دينه، ولا يخفى أن في هذا التبكيث والتقريع مزيداً من الإيلام له، بل هو نوع من العذاب، والذي ينتظره في النار أشد وأقسى .

ذكر هذا المعنى الذي تضمنه أسلوب الاستفهام في هذا الحديث كثيراً في القرآن الكريم، فقد تم فيه بيان هذا المعنى، كما تمَّ فيه كذلك حسم هذا الأمر معهم، ببيان أنهم لو افتدوا بجميع ما في الأرض ومثله معه فإن ذلك لن يُقبل منهم، ولن يكون فكاً لهم من النار، ولا حائلاً دون عذابهم جزاء شركهم، ومن ذلك قوله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ أَن لَّهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَيَفْتَدُوا بِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَا تُقْبَلُ مِنْهُمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.^(٢)

وثمة فرق بين أداء هذا المعنى في أسلوب القرآن الكريم، وفي الحديث الشريف، فقد تمَّ بيانه في القرآن الكريم بأسلوب خبري مؤكد، بينما ذكر في الحديث الشريف من خلال أسلوب الاستفهام، وقد اقتضى سياق كل واحد منهما هذا الأسلوب، كما أن التنوع في أداء هذا المعنى في ذلك مزيد من تأكيد هذه الحقيقة، ومزيد أيضاً من بيانها وتحقيقها؛ ليتضافر هذان الأسلوبان في إثبات هذه الحقيقة، وتأكيدهما .

الحديث الخامس عشر:

حديث أسامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ﷺ (يُجاء بالرجل يوم القيامة، فيلقى في النار، فتندلق أقتابه في النار، فيدور كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع عليه أهل النار، فيقولون: يا فلان ما شأنك؟

(١) فتح الباري: ١١/٤٠٨، برقم: ٦٥٣٨ .

(٢) المائة: ٣٦ .

أليس كنت تأمرنا بالمعروف، وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتية، وأنهاكم عن المنكر وآتية).^(١)

في هذا الحديث وعيد شديد لمن يأمر بالمعروف ولا يأتية، ولمن ينهى عن المنكر ويأتية، وقد تمَّ عرض هذا الوعيد بصورة منقّرة عن هذا العمل، بصورة بشعة كريهة، تنفر منها النفوس السليمة، والطباع المستقيمة، وقد تم هذا التنفير والترهيب من خلال بيان عقوبته التي يُعذب بها في النار، بل إن الحديث كله - بما توافر فيه من أساليب بيانية - قد تضافر في الدلالة على هذا المعنى، وتأكيدِه.

تأمل قوله ﷺ "يُجاء، ويُلقى" تجد أن الفعلين قد بُنِيَ للمجهول، وفي ذلك إشارة إلى أن هذا الرجل في هذا الموقف العصيب لا حول له ولا قوة، فيؤخذ، ومن ثمَّ يُلقى لا إرادة له ولا مشيئة، وإنما يُحمل على ذلك العمل قسراً؛ وذلك أن كل عمل كرهه للنفس غير موعوب فيه فإنها تُساق إليه سوقاً، ولا تقدم عليه طواعية واختياراً.^(٢)

وما إن يُلقى الرجل في النار إلا وتندلق أفتابه فيها، والمراد بها: الأعماء، وقد أوحى لفظه "تندلق" بسرعة خروجها، وقوة انطلاقها، يدل على هذا المعنى قولهم: اندلق السيف من غمده إذا خرج من غير سلٍ^(٣)، كما أن فيها دلالة على التتابع والتدفق، يدل على ذلك قولهم: اندلق السيل على القوم: أي هجم متدفقاً سريعاً، واندلقت الخيل: أي هجمت متتابعة متدفقة سريعة.^(٤)

وقد أوحى الفاء في قوله ﷺ (فتندلق أفتابه) - بدلالاتها على الترتيب والفور - أن الاندلاق يكون بعد الإلقاء في النار مباشرة، وفي هذا دلالة على شدة النار التي أُلقي فيها، وشدة فظاعتها، وشدة أثرها وتأثيرها البالغ عليه، وعلى جميع أجزاء جسده.

وفي ذكر الأفتاب هنا واندلاقها إشارة إلى «البطن الذي أكل فيه الأموال باسم الدين، وحشاه في الدنيا حشو الجشعين، وتعاضم به تعاضم المترفين».^(٥)

(١) فتح الباري: ٦ / ٣٨١، برقم: ٣٢٦٧، صحيح مسلم: ٤ / ٢٢٩٠، برقم: ٥١.

(٢) انظر: الحديث النبوي من الوجهة البلاغية: ١٦٣.

(٣) انظر: فتح الباري: ١٣ / ٥٦.

(٤) انظر: روائع من أقوال الرسول: ١٦٣.

(٥) روائع من أقوال الرسول: ١٦٥.

ولا يجد بعد ذلك مناصباً إلا الدوران على نفسه؛ ظناً منه أن ذلك يجديه، أو يخفف عنه شيئاً من مصابه، وما علم أنه بذلك يزداد شقاء على شقاء، وألماً على ألم، ولكنه يدور ويدور فراراً مما يلاقه من العذاب، ولكن أين المفر؟ وهو مطروح في النار.

وليبيان حال هذا الرجل، وهيئة دورانه تمّ تشبيهه بدوران الحمار في قوله ﷺ (فيدور كما يدور الحمار برحاه)، ولا يخفى أن في هذا التشبيه تقبيحاً لهذا المنظر، وازدراء به («فقد اعتاد الناس أن يصوروا المهانة في صورة الحمار، وليس بصورته المألوفة، ولكنه الذليل الذي أغمضت عيناه؛ زيادة في التحقير والإهانة، إنها صورة تؤثر في النفس، وتلقي ظلال المهابة، وتبعث على الفزع والرعب من هذا العذاب الأليم، والمقت الرباني لمن يسلك هذا المسلك، ويقولون ما لا يفعلون»).^(١)

وفي تجمع أهل النار على هذا الرجل دلالة على شدة عذابه، وقوة ألمه ومصابه، وإلا فكل واحد من أهل النار في شأن يغنيه، يظن أنه أشد الناس عذاباً ولو كان أخفهم، إلا أن شدة عذاب هذا الرجل، وغرابة هذه الصورة وبشاعتها جعلتهم يجتمعون حوله، ويسألونه عن سبب هذا العذاب.

واللافت في هذا الحديث أن أهل النار يعرفون هذا المعذب جيداً، فقد نادوه باسمه، وذكروا الحال التي كان عليها في الدنيا، وكيف لا يذكرونه؟ وقد عرفوه أمراً بالمعروف، ناهياً عن المنكر، وفي هذا المقام لا يسعه الإنكار، أو الكتمان، فيكشف خبيثة نفسه، ويذكر لهم ما لا يعلمون عن حاله، ويبين لهم الحال التي كان عليها بكل أسى ومرارة (كنت أمرم بالمعروف ولا آتية، وأنهاكم عن المنكر وآتية).

ولنا أن نسأل بعد هذا عن «المناسبة بين الجريمة والعقاب، وإنما يكون الجزاء من جنس العمل، ألم يكن الرجل يبطن الجرائم، ويسر المنكرات، وهو ظاهر الصلاح والتقوى؟ فالיום يفتضح وينكشف الداخل، حتى يعجب لافتضاحه من لا حق له أن يعجب، ويتساءل عن ذنبه من لا وجه له أن يتساءل؛ إذ هم شركاء في الدار، وقرناؤه في النار، ترى كم رأت الدنيا من هذه الصورة؟ اللهم عصمة بك من قولهم يا فلان»).^(٢) وبعد: فمن خلال هذا التشبيه تبين لنا تلك الصورة الكريهة، والمنظر البشع للمآل الذي آل إليه هذا الرجل، وهو يُعذب في النار، والغرض من هذا التصوير: التنفير من الإقدام على مثل هذا العمل، ترغيباً عنه وترهيباً.

(١) مشاهد القيامة في الحديث النبوي: ٣٧٧ .

(٢) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية: ١٦٤ .

ومن هنا تتجلى لنا بلاغة المصطفى ﷺ في استخدامه للأساليب البيانية، وتوظيفها في الدعوة إلى الله، وفي ترغيب الناس في الخير، وتنفيرهم من الشر، وترغيبهم عنه، من خلال الوعد والوعيد، الوعد لمن أقبل على الطاعات، والتزم بها، والوعيد لمن تهاون بالأمر والأمر، فارتكب المحرمات، وانتهك الحُرّمات، فلم يكن هذا الأسلوب حلية يُزين بها الكلام ويتوشح بها، بل كان له أثره الفاعل في بناء المعنى وإظهاره، وفي تحقيق الأغراض والأهداف التي يسعى المتكلم إليها من خلال هذا الأسلوب .

الحديث السادس عشر:

حديث عائشة . رضي الله عنها (أن قريشاً أهمهم شأن المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يُكلم فيها رسول الله؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حب رسول الله، فكلمه أسامة، فقال رسول الله: أتشفع في حدّ من حدود الله؟ ثم قام فاختطب، ثم قال: إنما أهلك من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ، وإيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعتُ يدها).^(١)

شاهد الاستفهام في قوله ﷺ (أتشفع في حدّ من حدود الله)؟ والغرض منه: الإنكار، وقد دلّ على الإنكار سياق الحديث كله، وقرائن الأحوال التي أحاطت بهذا الاستفهام، فقد راعه ﷺ إقدام أسامة على هذا العمل، إذ كيف يقدم عليه؟ وكيف يجروء أن يشفع في حدّ من حدود الله، وقد عبّر ﷺ عما في قلبه من الإنكار الشديد لأسامة ﷺ من خلال أسلوب الاستفهام.

وثمة رواية أخرى لهذا الحديث تدل . أيضاً . على معنى الإنكار، وتبرزه، وهي قوله ﷺ (أتكلمني في حدّ من حدود الله يا أسامة...؟)^(٢)، فقد أنكر ﷺ على أسامة ﷺ من خلال هذه الرواية مجرد كلامه وحديثه في هذا الموضوع، فضلاً عن شفاعته في ذلك، وفي هذه الرواية إشارة إلى أن الأمر جد، وأنه يُؤخذ بالحزم والعزم، وأنه لا يقبل نقاشاً ولا كلاماً، ومن هنا كان إنكاره ﷺ على أسامة ﷺ عظيماً؛ لإقدامه على الشفاعة في حدّ من حدود الله .

وحسبك بهذا الأسلوب زاجراً ورادعاً؛ لما يثيره في النفس من التساؤلات، والمعاني الكثيرة المتولدة من ذلك الاستفهام الموجه إليه، فيحمله ذلك كله إلى النظر في حاله، فيتبين له سوء فعله، وقبح ما أقدم عليه، فيقتنع من تلقاء نفسه بجريته، وخطأ صنيعه .

(١) فتح الباري: ٥٩٣/٦ برقم: ٣٤٧٥، صحيح مسلم: ١٣١٥/٣، برقم: ٨ .

(٢) فتح الباري: ٦١٩/٧، برقم: ٤٣٠٤ .

وكان في أسلوب الاستفهام تكراراً لذلك الإنكار، وتتبعاً له، ومن ثم فيشتد هذا الأسلوب على المخاطب، ويثقل عليه وطأة الإنكار، ويهق كاهله، ويصعب عليه تحمله، فيشعر حينها بفداحة عمله، وشناعة ما أقدم عليه.

وقد أنكر ﷺ على أسامة بهذه الجملة (أتشفع في حد من حدود الله يا أسامة)؟، ولم يزد عليها، والمعنى: «لا ينبغي أن يكون ذلك منك، وقال ﷺ: (في حد من حدود الله)، ومعلوم أن الحدود حدود الله، وإنما نصَّ رسول الله ﷺ على هذا المعلوم؛ ليعين أنه ﷺ لا يملك هذه الحدود، ولا يملك قبول شفاعتك، وحدود الله إذا بلغت الحاكم فليس لها مترك، كما بين ﷺ» (١)

ولم يقف إنكاره ﷺ عند هذا الحد، فقام خطيباً في المسلمين، تعبيراً عن إنكاره لذلك الفعل، ورفضه له، مبيناً خطورة هذا العمل في المجتمعات، وأنه السبب الرئيس في هلاك الأمم السابقة، فقد كانوا لا يقيمون الحدود إلا على الضعفاء دون شرفائهم، فأعلنها صريحة بكل عدل وشجاعة بلا محاباة لأحد ولا مجاملة لشريف أو قريب قائلاً: (وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعْتُ يدها)، وقد خصَّ النبي ﷺ فاطمة - رضي الله عنها - في هذا المقام؛ لأنها أعزُّ أهله عنده، وأحبهم إلى قلبه، فأراد من ذلك المبالغة في إثبات إقامة الحدود، وترك المحاباة في ذلك، أو المجاملة لأي أحد كائناً من يكون، ولو كانت ابنته فاطمة، «وحاشا للسيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ التي تربَّت في بيت النبوة أن تسرق، أو أن يقع منها ما يوجب عليها الحد، حاشا لها أن تفعل القبيح، أو تأتي المنكر؛ ولكنه مثل يضربه الرسول الكريم ﷺ حتى يبقى مثلاً على كَرِّ الدهور، ومَرِّ العصور في أن رسالة الإسلام، ودعوة محمد ﷺ إنما هي دعوة العدل، دعوة الإنسانية والمساواة لا محاباة فيها ولا مدارة، إنه المثل الأعلى، والنموذج الكامل لعدالة الإسلام التي ينبغي أن تُبنى عليها النظم، وتُساس عليها الأمم؛ لأنها شريعة الله». (٢)

ومن خلال ما تقدم يتبين أن الحديث كله - بما توافر فيه - تضافر لإبراز معنى الإنكار وتحقيقه، وقد ظهر ذلك جلياً من خلال جملة الاستفهام في قوله ﷺ (أتشفع في حدٍ من حدود الله يا أسامة)؟، فقد دلت على الغرض، وحققت المراد منها، في دلالتها على الإنكار في هذا الحديث.

(١) شرح أحاديث من صحيح البخاري: ٣٢١.

(٢) من كنوز السنة: ٥٩ .

الحديث السابع عشر:

حديث أنس رضي الله عنه (أن رجلاً سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الساعة فقال: متى الساعة؟ قال: وماذا أعددت لها؟ قال: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله، فقال: أنت مع من أحببت، قال أنس: فما فرحنا بشيء فرحنا بقول النبي أنت مع من أحببت، قال أنس: فأنا أحب النبي وأبا بكر وعمر، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم، وإن لم أعمل بمثل أعمالهم).^(١)

يسأل هذا الرجل عن وقت قيام الساعة، ولم يجب صلى الله عليه وسلم عن سؤاله، فهو لا يعلم ذلك، وليس مرد علمها إليه، ولهذا لم يجبه، ولم يلتفت إليه، بل لفت نظره إلى ما هو أهم، وأجدر أن يسأل عنه، ويهتم به، فقد ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم سؤاله، وضرب عنه صفحاً، متوجهاً إليه بسؤال آخر، لينقل موضوع الحوار، وي طرح قضية أخرى، حرية بالسؤال والاهتمام، وقد قصد صلى الله عليه وسلم من ذلك «كف السامعين عن السؤال عن وقت الساعة؛ لأنهم قد أكثروا السؤال عنها، كما ورد في كثير من الآيات والأحاديث، فلما حصل الجواب بما ذكر هنا حصل اليأس من معرفتها». ^(٢)

وقد تضمن استفهامه صلى الله عليه وسلم في إجابته عن ذلك السؤال عدة دلالات أراد تحقيقها، والإشارة إليها في هذا السياق، ولعل من أبرزها: أن هذا الاستفهام منه صلى الله عليه وسلم من أسلوب الحكيم، فهو لم يجب السائل عن مراده، ولم يذكر له وقتها، ولكن قال له - من خلال هذا الاستفهام - «مالك ولها، وإنما يهملك التزود لها، والعمل بما ينفعك فيها»^(٣)، وقد جاء الاستفهام بهذا الأسلوب ليلفت السائل إلى ما هو أجدر به أن يسأل عنه، ويهتم به، فلا شأن لك في وقت الساعة متى يكون، فلا تسأل عن الساعة، ولا تلتفت إليها، ولكن اسأل عن نفسك أنت، وانظر في حالك، واهتم بأمرك، فما موقفك منها؟ وماذا أعددت لها حتى تسأل عن وقتها؟ فجاء الاستفهام ليوقف السائل على حقيقة نفسه، وأن ينظر في حاله، وفي أعماله الصالحة، وفيما قدّم بين يدي الساعة.

وبعد أن نظر السائل في أعماله، وغاص في أعماقه، أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل صراحة ومرارة قائلاً: لا شيء إلا أني أحب الله ورسوله، فقد «طرح هذا الرجل ذكر أعماله؛ لأنه لا يرى لها قدراً، ونظر إلى ما في قلبه من مخصوص محبة الله، ومحبة رسوله فقدمه بين يديه». ^(٤)

(١) فتح الباري: ٥٢/٧، رقم: ٣٦٨٨، صحيح مسلم: ٤/٢٠٢٤، رقم: ١٦١.

(٢) فتح الباري: ١٤٨/١.

(٣) دليل الفالحين: ٢٣٥/٢.

(٤) دليل الفالحين: ٢٣٥/٢.

الحديث الثامن عشر:

قوله ﷺ (... وددتُ أنا قد رأينا إخواننا، قالوا: أولسنا إخوانك يا رسول الله؟ قال: أنتم أصحابي، وإخواننا الذين لم يأتوا بعد، فقالوا: كيف تعرف من لم يأت بعد من أمتك يا رسول الله؟ فقال: رأيتم لو أن رجلاً له خيل غر محجلة بين ظهري خيل دُهم بُهم، ألا يعرف خيله؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: فإنهم يأتون غراً محجلين من الوضوء ...)^(١)

لما علم الصحابة ﷺ بمراذه ﷺ بإخوانه الذين تمنى أن يراهم، سألوه كيف يعرفهم ولم يرههم في حياته، فهذا ما أشكل عليهم أمره ومن ثم سألوا عنه رسول الله ﷺ مستفهمين، ولم يرد ﷺ أن يسلك طريقاً مباشراً للإجابة عن سؤالهم، بل جعل الاستفهام وسيلة يتوصل من خلاله إلى إخبارهم بذلك، وسبباً يصل به إلى إزالة ما في نفوسهم، ومن ثم فقد سألهم مستفهماً عن أمر من أمور حياتهم، ومن صميم بيئتهم، فهم أهل الخيل والإبل، قائلاً: رأيتم لو أن رجلاً له خيل غر محجلة بين ظهري خيل دُهم بُهم، ألا يعرف خيله؟ وهكذا تحول ﷺ بالسؤال إليهم، وجعلهم مسؤولين بعد أن كانوا هم السائلين؛ ليتوصل بذلك إلى الإجابة من خلالهم، وعن طريقهم، بعد تأملهم في السؤال، وتفكيرهم فيه، ولذا أجابوه بقولهم: بلى يا رسول الله، وهذه الإجابة دلالتها في هذا السياق، فقد حقق الاستفهام من قبل رسول الله ﷺ الغرض المنشود منه، فقد أزال تعجبهم، وأزال - كذلك - ما حاك في صدورهم، وقام في نفوسهم، فإذا كان صاحب الخيل يعرف خيله، فكذلك رسول الله ﷺ يعرف من جاء بعده من أمته سواء بسواء، وذلك من آثار الوضوء، فإنهم يأتون غراً محجلين، دلالة على أثر الوضوء في وجوههم، وعاقبته الحميدة، وما يترك فيها من الحسن والوضاءة والنور.

ومن خلال ما تقدم يتبين أثر الاستفهام في هذا السياق، ودلالاته الموحية في الكشف عن هذه المعاني، والدلالة عليها بوضوح وجللاء، حين يجعل المخاطب أو السامع يصل إلى تلك المعاني، ويتنبه إليها بنفسه من خلال توجيه الاستفهام إليه، وتحويل الخطاب إليه .

(١) صحيح مسلم: ٢١٨/١، رقم: ٣٩ .

الحديث التاسع عشر:

حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه (أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرَّ بالسوق، داخلاً من بعض العالمة، والناس كنفته، فمرَّ بجدي أسك^(١) ميت، فتناوله، فأخذ بإذنه، ثم قال: أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نضع به؟ قال: أتحبون أنه لكم؟ قالوا: والله لو كان حياً كان عيباً فيه؛ لأنه أسك، فكيف وهو ميت؟ فقال: فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم).^(٢)

ليس غرضه صلى الله عليه وسلم من الاستفهام في قوله صلى الله عليه وسلم (أيكم يحب أن هذا له بدرهم)؟ أن يعلم من يحب ذلك، ومن لا يحب، بل أراد صلى الله عليه وسلم معنى آخر من هذا الاستفهام، أراد تمكينه في النفوس، وتقريره بأسلوب مشوق، حفز له النفوس، وجعل القوم يتطلعون إليه بشوق وترقب.

وقد توافرت أساليب عدة في هذا الحديث لبيان المعنى الذي أراد صلى الله عليه وسلم تقريره في النفوس، وتمكينه فيها، يتجلى ذلك فيما يلي:

١. في الاستفهام الذي بدأ به الحديث في قوله صلى الله عليه وسلم (أيكم يحب أن هذا له بدرهم)؟، وقد أشار الطيبي إلى دلالة هذا الاستفهام، يقول: (هذا الاستفهام إرشاد منه صلى الله عليه وسلم وتنبية، فنبههم صلى الله عليه وسلم على إلقاء السمع للخطاب الخطير، وشهود القلب لما يُعنى به من الخطب الجليل، وهوان الدنيا؛ ليوطن ذلك في قلوبهم مزيد توطين، ويقرره تقريراً بعد تقرير^(٣))، فذلك هو مراده صلى الله عليه وسلم من هذا الاستفهام، فكان الاستفهام - بهذا المعنى - سبيلاً لتقرير هذه الحقيقة، وتمكينها في النفوس أفضل تمكن، وبعد أن تهيأت النفوس، وبعد أن انقادت له، وتجاوبت معه - بفضل هذا الاستفهام ودلالاته - بعد هذا كله بين ما يريد بيانه، وصرح به قائلاً: فوالله للدنيا أهون على الله من هذا عليكم.

٢. في الإشارة إلى الجدي الأسك، باسم الإشارة في قوله صلى الله عليه وسلم (من هذا عليكم) تحقير له، وازدراء بشأنه، ومهانة له، فإذا كان هذا قدره، فما الظن بحال الدنيا، وإلى أي مدى ستكون حقاقتها وهوانها؟

٣. التشبيه الضمني الذي جاء في طيات هذا الحديث، وقد كشف هذا التشبيه، وأشار إليه الدكتور عبد الباري طه، يقول: (هذا الحديث اشتمل على تشبيه ضمني، فهم من المعنى، ومن سياق الكلام، فهم منه تشبيه الدنيا في هوانها على الله وحقاقتها بهذا الجدي الأسك في هوانه وحقاقتها على الناس، (فوالله

(١) الجدي: ولد المعز الذي لم يبلغ سنة، والأسك: صغير الأذن، أو الذي لا أذن له (انظر: القاموس المحيط: مادة: جدي، المنهاج:

. (٣٩٦/١٨)

(٢) صحيح مسلم: ٤/٢٢٧٢، رقم: ٢.

(٣) الكاشف عن حقائق السنن: ٩/٢٨٥.

للدنيا أهون على الله من هذا عليكم) تمثيل حرّك النفوس إليه، ودعا القلوب إليه، ولما كان في جانب ذم الدنيا كان مسه أوجع، وميسمه أذع، ووقعه أشد، وحده أحد، ولما كان في جانب العظة والاعتبار كان أشفى للصدر، وأدعى للفكر، وأبلغ في التنبيه والزجر، وفيما فعله الرسول ﷺ من الأخذ بأذن الجدي الأسك الميت في معرض تعليم وتأديب وهداية الصحابة والأمة إلى قيمة الدنيا عند الله ما قرّر المعنى في النفس، ومكّنه منها فلا يدع فيها تطلعاً إلى ما أريد التنفير له، والتحقيق له، فإذا ما كان الذي يعلمنا هو الصادق الأمين ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى فلا يكون إلا التسليم والامتثال والإذعان لما إليه أهدى. (١)

٤. اختيار المكان الذي تم فيه هذا الأمر، وهو السوق، واختيار الجدي الأسك كذلك، ففيهما دلالة مهمة في إبراز المعنى الذي يريد ذكره وتقريره، إذ الأغلب في أهل الأسواق، الركض خلف الدنيا، والتهافت عليها، والتنافس فيها، وقد يجزّ ذلك الوقوع في محرم، أو يكون ذلك على حساب طاعة، كل ذلك من أجل الدنيا وحطامها، فأراد من هذا المثل وفي هذا المكان الإشارة إلى حقارة الدنيا وهوانها على الله^(٢)، فإذا كان هذا وزنها وقدرها عند الله، أفيحسن التنافس فيها، والانشغال بها، والخري خلف بريقها؟ وهكذا تضافرت هذه الأمور كلها في إبراز المعنى المراد تحقيقه وتقريره، وكيف لا يتحقق هذا المعنى، ويتقرر في النفوس؟ وقد استطاع ﷺ أن يتمكن من تلك النفوس، وأن يجعلها تتوق متلهفة متشوقة إلى المعنى المراد تحقيقه من الاستفهام، الذي بدأ به حديثه، إذ قد علموا جميعاً أن وراء الاستفهام ما وراءه من المعاني والإيحاءات التي أراد ﷺ تحقيقها، وتقريرها حين أخذ بإذن ذلك الجدي الأسك الميت .

الحديث العشرون:

حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: (كنا عن النبي في قبة، فقال: أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة؟ قلنا: نعم، قال: أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ قلنا: نعم، قال: أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة؟ قلنا: نعم، قال: إني لأرجو أن تكون شطر أهل الجنة؛ وذلك أن الجنة لا يدخلها إلا نفس مسلمة، وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر). (٣)

(١) أثر التشبيه في تصوير المعنى: ٣٢٤

(٢) انظر: أسلوب الاستفهام في الصحيحين: ١٥٥ .

(٣) فتح الباري: ٣٨٥/١١، برقم: ٦٥٢٨، صحيح مسلم: ٢٠١/١، برقم: ٣٧٨ .

تضمن هذا الحديث بشرى للأمة المحمدية، وهي بشرى عظيمة تتضاءل دونها كل البشارات، وتتصاغر دون شموخها وسموقها كل المسرات، ولعظم هذه البشارة، وجليل قدرها لم يرد ﷺ أن يذكرها ذكراً عابراً، بل توخى أسلوباً بيانياً رائعاً في زفِّ هذه البشارة لهم، ومن هنا اتخذ ﷺ من أسلوب الاستفهام سبيلاً إلى ذكر هذه البشارة وبيانها في قوله (أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة)؟ وما لهم لا يرضون بذلك؟ ولذا بادروه قائلين: نعم.

ولم يكن ﷺ ينتظر منهم جواباً عن هذا السؤال، فقد علم منهم مسبقاً ذلك، وإنما أراد من خلال هذا الأسلوب بشارتهم بهذا الأمر العظيم، وهذا هو سرُّ إثارة أسلوب الاستفهام في هذا السياق، واختياره في ذكر هذه البشارة، فقد أثر هذا الأسلوب؛ ليطمئن له من خلاله تقرير هذه البشارة في نفوسهم، وليهيئ نفوسهم لتلقيها، ليطمئن لهم بذلك الفرح بهذه البشارة، والأنس بها، وقد ازداد فرحهم بهذه البشارة، وأنسهم بها حين قال لهم: أترضون أن تكونوا ثلث أهل الجنة؟ ثم أتبعه بقوله: أترضون أن تكونوا شطر أهل الجنة؟

فلما قرت عيونهم بذلك، وسعدت قلوبهم بهذه البشارة، وبنيل هذه الدرجات، وسكنى تلك المنازل التي تتقطع الأعناق دون نيلها، أو الخلود فيها، قال لهم بعد ذلك بأسلوب خبري مؤكد (إني لأرجو أن تكونوا شطر أهل الجنة)، وفي تأكيد الخبر بـ "إن واللام" تحقيق لهذه البشارة، وقطع بوقوعها، وأنهم سيكونون شطر أهل الجنة، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم.

وإن تعجب فاعجب لتكرار الاستفهام في هذا الحديث، وتدرج هذه البشريات، وبيان أنهم ربع أهل الجنة، ثم أخبر أنهم ثلث أهلها، ثم تكاملت البشريات حين أخبرهم مؤكداً أنهم شطر أهل الجنة، ولتكرار الاستفهام، والتدرج في ذكر هذا الفضل، وتلك البشريات نكتة بليغة، ودلالة حسنة، وبلاغة منه ﷺ؛ لكون ذلك «أوقع في نفوسهم، وأبلغ في إكرامهم؛ فإن إعطاء الإنسان مرة بعد أخرى دليل على الاعتناء به، ودوام ملاحظته، وفيه فائدة أخرى، وهي تكرير البشارة مرة بعد أخرى، وفيه أيضاً حملهم على تجديد شكر الله، وتكبيره وحمده على كثرة نعمه». (١)

يتجلى أثر هذا الاستفهام، وتظهر بلاغته حين نحيط بالأجواء التي قيل فيها هذا الحديث، فقد قال لهم قبل هذا القول - كما في بعض الروايات - : (إن الله يقول: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك، والخير في يديك، قال: يقول: يا آدم اخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة

(١) المنهاج: ٩٦/٣ .

وتسعة وتسعين، فذاك حين يشيب ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾^(١)، فاشتد ذلك عليهم، وقالوا: يا رسول الله: أيننا ذلك الرجل؟ قال: أبشروا فإن من يأجوج ومأجوج ألفاً، ومنكم رجل، ثم قال: والذي بيده إنني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة، قال: فحمدنا الله، وكبرنا، ثم قال: والذي نفسي بيده إنني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة، إن مثلكم في الأمم كمثل الشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالرقمة في ذراع الحمار^(٢)، فإذا كانت هذه حالتهم، وما كان فيها من الهمِّ والغمِّ ندرك بعدها فضل هذا الاستفهام المتكرر ومزيتته، كيف استطاع أن يغير حال القوم، وأن ينقلهم من الحزن والخوف والشفقة إلى الفرح والسرور، التي عبروا عنها بالتكبير والتحميد، شكراً لله، وفرحاً بهذه البشارة العظيمة .

وإتماماً لهذه البشارة بين لهم ﷺ حالهم بالنسبة إلى الأمم الأخرى يوم القيامة في قوله ﷺ (وما أنتم في أهل الشرك إلا كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود، أو كالشعرة السوداء في جلد الثور الأحمر)، فما أقل هذه الأمة عدداً، ولكن ما أعظمها قدراً ومنزلة عند الله، فحسب هذه الأمة القليلة أنما شطر أهل الجنة، وقد صور رسول الله ﷺ قلة هذه الأمة تصويراً دقيقاً من خلال هذا المثل الذي ضربه، فقد ذكر لبيان هذه الحقيقة ((مثلاً يراه الناس كثيراً، ثور أسود غطى الشعر الأسود جسده كله، وفيه شعرة بيضاء واحدة، ما نسبتها إلى الشعرات السود؟ إنما لا تكاد تُرى، وهكذا المسلمون في الناس، فهم كرام، والكرام قليل، وعلى الرغم من قلة المسلمين بالنسبة للآخرين إلا أنهم يكونون في الجنة نصفها، والمثل واقعي منتزع من بيئة المخاطبين، والحديث دالٌّ على رحمة الله بالمسلمين، وإكرامه لهم))^(٣) .

وثمة رواية أخرى لهذا الحديث عند مسلم، وهي قوله ﷺ (والذي نفسي بيده إنني لأطمع أن تكونوا ربع أهل الجنة، فحمدنا الله، وكبرنا، ثم قال: والذي نفسي بيده إنني لأطمع أن تكونوا ثلث أهل الجنة، فحمدنا الله، وكبرنا، ثم قال: والذي نفسي بيده إنني لأطمع أن تكونوا شطر أهل الجنة...)^(٤) .

وقد ذُكر المعنى في هذه الرواية ابتداءً دون أسلوب الاستفهام، بأسلوب خبري مؤكَّد، وفي تأدية هذا المعنى من خلال هذا الطريق أسرار بلاغية أخرى، ففي ذلك تعجيل بذكر هذه البشارة لهم، وزفها من

(١) الحج: ٢ .

(٢) فتح الباري: ٦/٤٤٠، برقم: ٣٣٤٨، صحيح مسلم: ٢٠١/١، برقم: ٣٧٩ .

(٣) التصوير الفني في الحديث النبوي: ١٧٣ .

(٤) صحيح مسلم: ٢٠١/١، برقم: ٣٧٩ .

خلال هذا الخبر المؤكد، وهو الصادق المصدوق ﷺ الذي لا يخالط كلامه شك ولا امتراء، ولكن تأكيده لهذا الخبر طمأنينة لنفوس أصحابه ﷺ، وتحقيق لهذا البشارة، وأنها كائنة لا محالة. ومن هنا تتجلى أهمية تعدد روايات الحديث الواحد، كما أن ذلك يحتم علينا النظر في هذه الروايات جميعاً، لسبر غور كل رواية، وإنعام النظر في أسرارها البلاغية، ونكتها البيانية .

الحديث الواحد والعشرون:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه فَأَقْرَبُ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا بَدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١﴾ (٢))

شاهد الاستفهام في هذا الحديث في قوله رضي الله عنه (هل تحسون فيها من جدعاء)؟، والغرض منه: التأكيد لما ذُكر لهم في أول الحديث، فقد أراد رضي الله عنه من هذا الحديث أن يبين لهم أن الإسلام دين الفطر السليمة، إذ تتجه إليه بفطرتها، فقد فُطرت على ذلك ابتداءً في أصل نشأتها، والمعنى: «تمكن الناس من الهدى في أصل الجبلية، والتهيؤ لقبول الدين، فلو تُرك عليها لاستمر على لزومها، ولم يفارقها إلى غيرها؛ لأن هذا الدين حسنه موجود في النفوس، وإنما يُعدل عنه لآفة من الآفات البشرية» ﴿٣﴾.

ثم أشار الرسول ﷺ إلى أكبر سبب يبعد المولود عن الفطرة، وهما: الوالدان، فلا شك أن لهما أثراً كبيراً في تربيته، وتوجيهه، فهما اللذان يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، فيكون الطفل امتداداً لهما، فيتمثل بما تمثلاه، فيسير على نهجهما، ويقتفي أثرهما.

وفي مجي هذه الألفاظ " يهودانه، ينصرانه، يمجسانه " أفعالاً مضارعاً دلالة على تجدد حدوث هذه الأفعال، وتكرر وقوعها مرة بعد أخرى، يصدق هذه الدلالة واقع الوالدين في تربية الأبناء، فهي تربية مستمرة دائمة لا تنقطع، فهي مستمرة دائمة تستغرق الحياة كلها.

يؤيد هذا المعنى ويؤكد التشبيه الذي ذكره رضي الله عنه إثر هذه الحقيقة، في قوله (كما تُنتج البهيمة بهيمة جمعاء) وهي التي لم ينقص من بدنها شيء، سُميت بذلك؛ لاجتماع أعضائها وسلامتها، فقد خلت من

(١) الروم: ٣٠ .

(٢) فتح الباري: ٢٦٠/٣، رقم: ١٣٥٩ .

(٣) الكاشف عن حقائق السنن: ١٧٧/٨ .

الجدع، أو الكي، فالبهيمة تلد بهيمة كاملة الأعضاء، سليمة لا نقص فيها، وإنما يحدث لها النقص والجدع بعد ولادتها. (١)

إذن فالبهيمة لا تلد إلا بهيمة جمعاء، ولتأكيد هذه الحقيقة وتقريرها ذكر ﷺ هذا الاستفهام (هل تحسون فيها من جدعاء؟)، وحين يتأمل المخاطب هذا الاستفهام، وينظر فيه، فلن يتردد بالنفي، وفي هذا النفي تأكيد لما سبق بيانه من أن البهيمة لا تلد إلا بهيمة جمعاء، وأن ما يصيب البهيمة فيما بعد من قطع لأحد أعضائها إنما يكون لها ذلك بعد ولادتها، ويكون ذلك بفعل فاعل .

وقد تأكد المعنى الذي ذكره رسول الله ﷺ من خلال أسلوب الاستفهام، وتقوى حين بين لهم الحالة التي تكون عليها البهيمة حين ولادتها، وما يطرأ عليها بعد ذلك من القطع، أو النقص في أحد أعضائها.

وحين نتأمل هذا الحديث نجد توافر الأساليب البلاغية فيه وتتابعها، فقد استعمل رسول الله ﷺ أسلوب التشبيه، في قوله ﷺ (كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء)، ثم أتبع ذلك بأسلوب الاستفهام في قوله ﷺ (هل تحسون فيها من جدعاء؟)، ويجب أن يعلم أن هذه الأساليب البلاغية لم تكن مرادة لذاتها، وإنما وظّفها رسول الله ﷺ لإظهار غاية عظمة، وتأكيدا، وهي: أن كل مولود يولد على الفطرة، ومن ثم أكد هذه الحقيقة وأبرزها بصورة قشبية من البيان؛ تأكيداً على أهميتها؛ ليلفت أنظار الوالدين والمربين إلى أهمية التنشئة الصالحة، وتعهد المولود على تربيته التربية الإسلامية، وتجنبه كل ما من شأنه أن يعده عن هذا الدين، أو يقلل تمسكه به، أو ولاءه له.

الحديث الثاني والعشرون:

حديث أم سلمة - رضي الله عنها - قالت: (استيقظ النبي ﷺ ذات ليلة، فقال: سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن؟ وماذا فُتح من الخزائن؟ أيقظوا صواحب الحجر، فرب كاسية في الدنيا، عارية في الآخرة). (٣)

شاهد الاستفهام في هذا الحديث في قوله ﷺ: (سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن؟ وماذا فُتح من الخزائن؟) ولم يكتفِ ﷺ بدلالة الاستفهام على التعجب، فأتى بلفظة " سبحان الله " تأكيداً لمعنى

(١) انظر: فتح الباري: ٣/٣٩٥، المنهاج: ٤٥١/١٦ .

(٢) الجدعاء: هي التي قُطعت أذنها أو أنفها، والمذكر منه أجدع. (انظر: القاموس المحيط: مادة: جدع) .

(٣) فتح الباري: ١/٢٥٣، برقم: ١١٥ .

التعجب، وإظهاراً له؛ لأن في التسييح والتكبير تعظيماً لله تعالى، وتنزيهاً له من كل عيب ونقص، ومن عادة القوم استعمال ذلك عند إرادة التعجب، واستعظام الأمور. (١)

ثم أتبع ﷺ تسييحه عما لا يليق به بالجملة الاستفهامية في قوله ﷺ (ماذا أنزل الليلة من الفتن؟ وماذا فُتح من الخزائن)؟ وفي هذا الاستفهام تعجب من هذه الفتن التي أنزلت، ومن تلك الخزائن التي فُتحت، وقد جاء الاستفهام مؤكداً معنى التعجب الذي تضمنه التسييح، ومقرراً له .

ثم ذكر رسول الله ﷺ الأمر الذي تعجب منه، وهي الفتن التي أنزلت، والخزائن التي فُتحت، وإنهما لأمران عظيمان، حقُّ له ﷺ أن يتعجب منهما، وأن يكون هذا حاله وموقفه منهما .

وقد عبّر رسول الله ﷺ عن العذاب بالفتن؛ وفي ذلك دلالة على أن هذه الفتن تقود من فُتن بها، واتبعتها إلى العذاب، وسوء المصير في آخرته ودينه، كما جاء التعبير عن الرحمة بالخزائن، وفي ذلك إشارة إلى كثرتها، وعموم نفعها. (٢)

وفي بناء لفظة " أنزل " للمجهول دلالة على كثرة هذه الفتن، وتعدد مصادرها، وتنوع أثرها وتأثيرها، كما أن في ذلك أدباً مع الله - سبحانه وتعالى - في عدم إسناد نزول هذه الفتن إليه، فالشر ليس إليه سبحانه .

وفي أمره ﷺ بإيقاظ أزواجه إشارة إلى ما ينبغي على المؤمن فعله حال الفتن، وهو الفرع إلى الله بالصلاة، والاستغفار، ولا سيما في الليل؛ فهو أرجى للإجابة، وأصدق في التضرع، عسى ربه أن يحفظه من الفتن، وأن يقيه شرها وأضرارها. (٣)

ثم ختم ﷺ الحديث بقوله ﷺ (فرب كاسية في الدنيا، عارية في الآخرة)، وفي هذه الخاتمة إشارة من طرف خفي إلى الارتباط الوثيق بين الفتن التي أنزلت وبين هذا الصنف من النساء، فللنساء النصيب الأكبر من هذه الفتن، فقد يكنَّ سبباً فيها، وقد يكنَّ الفتنة بأنفسهن، وبسبب أفعالهن، وقد يكنَّ من يضرمن أوار تلك الفتن، وقد يكنَّ الأداة الطيعة في يد الشيطان والأشرار في إذكاء تلك الفتنة، وإشعال فتيلها، وانتشارها، وقد يكنَّ سبباً في تساقط الناس فيها، وكيف لا يكنَّ كذلك وقد ذكر النبي ﷺ حالهن، وكشفه كشفاً دقيقاً بيناً في قوله ﷺ (فرب كاسية في الدنيا، عارية في الآخرة)، وقد تعددت أقوال العلماء في بيان مراده من هذا الوصف، فمما قيل في ذلك :

(١) انظر: فتح الباري: ١٠/٦١٤، إرشاد الساري: ٣١١/١ .

(٢) انظر: الكاشف عن حقائق السنن: ٣/١٢٣ .

(٣) انظر: فتح الباري: ١/٢٥٥ .

- ١- أي كاسية في الدنيا بالثياب؛ لوجود الغنى، عارية في الآخرة من الثواب؛ لعدم العمل في الدنيا .
- ٢- وقيل: كاسية بالثياب، لكنها شفافة لا تستر عورتها، فتُعاقب في الآخرة بالعري؛ جزاء ذلك .
- ٣- وقيل: كاسية من نعم الله، عارية من الشكر لتلك النعم .
- ٤- وقيل: كاسية جسدها؛ لكنها تشدُّ خمارها من ورائها، فيبدو صدرها، فتصير عارية، فتُعاقب في الآخرة . (١)

ومن خلال ما تقدم يتبين لنا بجلاء دقائق معنى هذا الحديث كله وجزئياته، وإنها لمعانٍ عظيمة، حُق له أن يتعجب منها، وأن يستعظم أمرها، وقد كان سبيله في تحقيق ذلك وإظهاره أسلوب الاستفهام الذي استفتح به هذا الحديث .

الحديث الثالث والعشرون:

حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه أنه قال: (صلى بنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطِرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي، كافر بالكواكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي، ومؤمن بالكواكب) . (٢)

يذكر النبي ﷺ في هذا الحديث جانباً من جوانب العقيدة الإسلامية، وموضوعاً مهماً من موضوعاتها الرئيسية، البالغة الخطورة، التي بسببها انقسم الناس إلى مؤمنين وكافرين، وقد جاء بيانه ﷺ لهذا الموضوع متوافقاً كل الموافقة مع هذه المكانة، ومنبثقاً منها.

يتجلى اهتمامه ﷺ بهذه القضية، وحفاوته بها من عدة أمور اشتمل عليها هذا الحديث، ومن أهمها ما يأتي:

أولاً: المكان والزمان اللذان ذُكر فيهما هذا الحديث، فمما لا شك فيه أن لهما أثراً واضحاً في الدلالة على العناية التامة بهذا الموضوع الجلل، وقد صور راوي الحديث هذه الأجواء مكاناً وزماناً في قوله (صلى لنا النبي ﷺ صلاة الصبح بالحديبية إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس)، فالوقت بعد صلاة الفجر، ولما يبرح الناس أماكن صلاتهم، ولم يكونوا في المدينة، بل كانوا في الحديبية، وكان القوم مطورين ليلتهم، فقد كانوا إثر سماء، ولك أن تمنع النظر متأملاً هذه الأجواء المناخية، وفي هذه الظروف

(١) فتح الباري : ٢٦/٧ .

(٢) فتح الباري: ٣٨٨/٢، برقم: ٤٨٦، صحيح مسلم: ٨٣/١، برقم: ١٢٥ .

المكانية والزمانية، فما الظن بموضوع يُطرح في مثل هذه الأجواء والظروف؟ لا شك ولا مرأى سيكون بالغ القدر والأهمية، والخطورة معاً، وهذا ما تبادرت إليه أذهان الصحابة رضي الله عنهم، وانصرفت إليه أفكارهم، بيد أنه رضي الله عنه لم يمهلهم للتأمل في حالهم، والنظر في أمرهم، فقد بادرهم بقوله (أتدرون ماذا قال ربكم)؟

ثانياً: الاستفهام الذي بدأ به رضي الله عنه حديثه لأصحابه رضي الله عنهم، - وهو بيت القصيد في هذا الحديث - فقد توجه رضي الله عنه بسؤال أصحابه قائلاً: (أتدرون ماذا قال ربكم)؟، المتبادر إلى الأذهان أن يذكر لهم النبي رضي الله عنه ما يريد بيانه ابتداءً دون التوجه إليهم بالسؤال، إلا أنه رضي الله عنه أثر بيان هذه الحقيقة وذكرها من خلال أسلوب الاستفهام؛ يقصد رضي الله عنه من ذلك توظيف هذه الأسلوب ودلالاته في ترسيخ المعنى الذي يريد ذكره لهم، كما يريد من ذلك المزيد من تشويقهم، وإثارة انتباههم؛ لتقبل على هذه الحقيقة، ومن ثم تعقلها، وتعمل بها، فهذا مراده رضي الله عنه من استخدامه لأسلوب الاستفهام في هذا المقام، وفي ذكر هذه الحقيقة المهمة المتعلقة بعقيدة هذه الأمة .

وقد جاءت إجابة الصحابة رضي الله عنهم معبرة كل التعبير عن أدبهم الجم مع رضي الله عنه، وعلى لزومهم للأدب مع من هو أعلى منهم علماً، ووقوفهم عند حدّ علومهم^(١)، أجاوبه قائلين: (الله ورسوله أعلم)، وأنى لهم أن يعلموا وهو يسألهم عن أمر غيبي، يتعلق بأمر العقيدة؟ طريق العلم بها ماجاء في كتاب الله، أو على لسان رسول الله رضي الله عنه، فهو الذي يعلمهم أمرها، ويدلهم على حقيقتها، وما هم بعالمين منها بشيء إلا من خلال هذين الطريقين، ولذا فلا محيد عنهم عن هذه الإجابة (الله ورسوله أعلم) .

ثالثاً: اختيار لفظة "الرب" وإيثارها في هذا السياق، في سؤاله رضي الله عنه في قوله (هل تدرون ماذا قال ربكم)؟، فلا شك أن إيثار لفظة "الرب" في هذا السياق، وإضافتها إلى ضمير المخاطبين لاشك أن لها في هذا السياق دلالة مهمة، أراد رسول الله رضي الله عنه إبرازها في هذا المقام، وتوظيف دلالتها في هذا الموضوع، فقد أراد من ذلك أن يقول لهم: إني أحدثكم عن ربكم أنتم، ذلك الرب الذي تولى أمركم وشؤونكم كلها، فهو مولاكم القائم على مصالحكم، فهو سيدكم ومالك أمركم، ولا شك أن تذكيرهم بهذه المعاني، وطرحها عليهم في هذا المقام مزيد من شد انتباههم، ولفت أنظارهم، والإشارة إلى أن الأمر متعلق بهم، بل إن علوقه بهم قوي شديد، وذلك أن المتحدث هو ربكم، ومن هنا يتجلى سرُّ اختيار هذه اللفظة، وإيثارها في هذا المقام .

(١) انظر: دليل الفالحين: ٥٦١/٤ .

وبعد هذا كله ذكر لهم رسول الله ﷺ ما أراد ذكره، وهو بيان ما قاله الله - عزَّ وجل -، وهو قوله ﷺ: (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مُطَرْنَا بِفَضْلِ اللَّهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالْكَوَاكِبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بَنُو كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي، وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوَاكِبِ)، وهذه الحقيقة من الأهمية بمكان، لها خطرها وشأنها، بل يترتب عليها انقسام الناس إلى مؤمنين وكافرين، هذه الحقيقة المهمة لم يرد ﷺ أن يذكرها لأصحابه ﷺ ابتداءً، بل آثر أن يستخدم أسلوب الاستفهام في بيانها لهم، وفي تحذيرهم من الكفر، وفي إرشادهم إلى ما ينبغي عليه قوله حال تجدد النعم، لحظة نزول الغيث .

ونجد أن كل ما في هذا الحديث من وسائل بيانية قد تضافرت جميعاً لإبراز هذه الحقيقة وبيانها، والتعبير عنها بأبلغ صورة، وأبهى حلة، فقد وُظف أسلوب الاستفهام في التعبير عن هذه المعاني العقديّة، وهذا الاهتمام البالغ منه ﷺ في ذكر هذا المعنى، وفي إيضاح هذه الحقائق دلالة على اهتمامه الكبير بأمر العقيدة، والاحتفاء بشأنها، كما أن في ذلك حماية لجنابها من تطرق أدنى شائبة من شوائب الشرك إليها التي تخدش عقيدة المسلم، بل قد تناقضها وتهدمها من أساسها .

الحديث الرابع والعشرون:

حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: (كان النبي ﷺ يعتكف في العشر الأواخر من رمضان، فكنْتُ أَضْرِبُ لَهُ خِباءً، فيصلي الصبح ثم يدخله، فاستأذنت حفصة عائشة أن تضرب خباء آخر فأذنتُ لها، فضربت خباءً، فلما رأت زينب بنت جحش ضربت خباءً آخر، فلما أصبح النبي ﷺ رأى الأخبية فقال: ما هذا؟ فأخبر، فقال النبي ﷺ: ألبر ترون بهن؟ فترك الاعتكاف ذلك الشهر، ثم اعتكف عشراً من شوال).^(١)

شاهد الاستفهام في الحديث في قوله ﷺ (ألبر ترون بهن)؟ ولفظة "البر" في قوله (ألبر ترون بهن) منصوبة، وهي مفعول مقدم للفعل "ترون"، وقد قُدم المفعول على فعله، وولي همزة الاستفهام، وفي تقديمه أسرار بلاغية اقتضاها المقام، فالاستفهام فيه للإنكار، فقد قال ﷺ هذه الجملة مخاطباً بها من حوله من الصحابة ﷺ إنكاراً على نساءه هذا الفعل منهن .

وفي رواية أخرى أنه ﷺ قال (ألبر ترون) ^(٢)، ولا تختلف هذه الرواية عن الرواية الأولى في بنائها التركيبي، من حيث التقديم والتأخير الذي تمَّ فيها، ولا في غرضها البلاغي - كذلك - فهي أيضاً

(١) فتح الباري: ٤/٣٢٣، رقم: ٢٠٣٣، صحيح مسلم: ٨٣١/٢، رقم: ٦٠ .

(٢) صحيح مسلم: ٨٣١/٢، رقم: ٦ .

للإنكار، بيد أن الخطاب في هذه الرواية توجه به رسول الله ﷺ إلى نساءه - رضي الله عنهن - ؛ وذلك أشد في الإنكار، وأوجع في النفس وألذع .

وقد ذكر العلماء دافع هذا الإنكار وسببه، فقد خشي ﷺ أن يكن غير مخلصات في هذا العمل، وأن يكون الباعث لهن على ذلك التنافس بينهن الناتج من غيرة بعضهن على بعض؛ حرصاً منهن على القرب من رسول الله ﷺ، والمباهاة به، ومن ثم يخرج الاعتكاف عن موضوعه، ويفقد مقصوده، والمراد منه (١).

كما ذكر العلماء أسباباً أخرى لهذا الإنكار، فمن ذلك: أن نساءه حين اعتكفن معه صار ﷺ كأنه في منزله؛ لوجود زوجاته حوله، فيذهب حينها المقصود من الاعتكاف، وهو التخلي عن الدنيا، والبعد عن الزوجات، ومتعلقات الدنيا، والانصراف إلى العبادة والاشتغال بها. (٢)

وقد يكون سبب إنكاره: أنه خشيته ﷺ أن يضيق المسجد على المصلين، لوجود تلك الأخبية، ولكون المسجد - وهو مكان الاعتكاف - يجتمع فيه الناس للصلاة وغيرها، ويحضره الأعراب والمنافقون، ونسأؤه محتاجات إلى الدخول والخروج فيبتذلن بذلك، فكأنه ﷺ كره ذلك الأمر، فكان أن أنكر عليهن ذلك الفعل (٣)، بيد أن ما ذكر أولاً هو الأولى والأقوى، وهو الذي يتناسب مع بناء جملة الاستفهام ودلالاتها .

وقد دلّ على إنكاره ﷺ على أزواجه قوله وفعله، فأما القول فمن خلال الجملة الاستفهامية (آلبر ترون بهن) بما فيه من إحكام، وبناء تركيبها، وما تم فيها من تقديم وتأخير، ففي تقديم المفعول، والنظر في إيجاءات اللفظة المقدّمة ودلالاتها يتبين لنا أنها هي المرادة من الاعتكاف، أو هو الذي ينبغي أن يكون، فلا ينبغي أبداً ولا يصح أن يكون ثمة باعث للاعتكاف غير البر، ولا شيء غيره من حظوظ النفس، أو سواه من حطام الدنيا، فلما كان باعث الاعتكاف البر ولا شيء غيره بدأ به ﷺ في منطقته، وقدمه على غيره، وجعله تالياً لهمزة الاستفهام، فقد اقتضى المقام أن تكون لفظة "البر" مقدمة على غيرها؛ دلالة على أهميتها، وتذكيراً بها، وبياناً لقدرها، وإشارة منه ﷺ أن المدار عليها، وبدونها لا تُقبل الأعمال، ولا يُلتفت إليها، فإذا كان الأمر كذلك فما بال هؤلاء النسوة يردن شيئاً غير البر في هذا الاعتكاف، ومن هنا جاء إنكاره ﷺ الشديد عليهن، وعلى فعلهن، وقد دلّ على هذا المعنى وأكده

(١) انظر: إرشاد الساري: ٤٤٢/٣، المنهاج: ٣١٨/٨ .

(٢) انظر: عمدة القاري: ٢٢٥/٩، فتح الباري: ٣٤٨/٤ .

(٣) انظر: المنهاج : ٣١٨/٨ .

التقديم والتأخير في الجملة الاستفهامية، ومن هنا يتبين بلاغة هذا الأسلوب، وأثره البين في المقامات التي يتطلبها، وأثره الواضح في تحقيق المقصود، وتبيين المراد، وما كانت هذه المعاني لتكون وتتم لو خلت جملة الاستفهام من التقديم والتأخير.

وكذلك أنكروا عليهن رسول الله ﷺ بفعله حين ترك الاعتكاف ذلك الشهر، مبالغة منه ﷺ في الإنكار، وتربية لهن ولغيرهن في النظر في بواعث الأعمال، تأكيداً منه ﷺ على إصلاح النيات، وتخليصها من حظوظ النفس ومشتياتها من أمور الدنيا ومتعلقاتها، فلا يقبل - سبحانه - من الأعمال إلا ما كان خالصاً لوجهه .

وفي هذا الحديث دلالة على شؤم الغيرة، ووبال عاقبتها؛ لكونها ناشئة عن الحسد المذموم المفضي إلى ترك الأعمال الصالحة، كما في هذا الحديث، وفيه دلالة - كذلك - على جواز ترك الأفضل من الأعمال إذا ترتب على ذلك مصلحة أخرى، أو كان ذلك لدرء مفسدة مترتبة على ذلك العمل. (١)

وثمة نظائر لهذا الاستفهام من القرآن الكريم في دلالاته، وفي بنائه التركيبي، ومن ذلك: قول الله تعالى: ﴿إِنَّ مِنْكُمْ لَمَنْ لَكُمْ بِهِ كَرَاهَةٌ أُولَئِكَ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ (٢)، وقد أفاد الاستفهام الإنكار عليهم فعلهم ذلك، وتتجلى بلاغة هذا الأسلوب أن أفاد هذا المعنى، ودل عليه بهذه الصورة، وبهذا الطريق، وقد كشف عبد القاهر الجرجاني بلاغة هذا الأسلوب ودلالاته، يقول: «... المراد إنكار التحريم من أصله، ونفي أن يكون قد حُرِّم شيء مما ذكروا أنه محرَّم، وذلك أن الكلام وُضع على أن يجعل التحريم كأنه قد كان، ثم يقال لهم: أخبرونا عن هذا التحريم الذي زعمتم فيم هو؟ أفي هذا؟ أفي ذاك؟ أم في الثالث؟ ليتبين بطلان قولهم، ويظهر مكان القرية منهم على الله تعالى». (٣)

الحديث الخامس والعشرون:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (لا عدوى ولا صفر ولا هامة، فقال أعربي: يارسول الله فما بال إبلي تكون في الرمل كأنها الظباء فيأتي البعير الأجرب فيدخل بينها فيجرها؟ فقال رسول الله: فمن أعدى الأول؟) (٤)

(١) انظر: فتح الباري: ٣٤٩/٤ .

(٢) الأنعام: ١٤٣ .

(٣) دلائل الإعجاز: ١١٥ .

(٤) فتح الباري: ١٨٠/١٠، برقم: ٥٧١٧، صحيح مسلم: ١٧٤٢/٤، برقم: ١٠١ .

في هذا الحديث يبين ﷺ بطلان كثيراً من المعتقدات الباطلة والسائدة في الجاهلية، فنفي العدوى والصفرة والهامة، ولكن هذه المعتقدات راسخة في نفوسهم، ومرتسبة في أعماق أعماقهم، يعتقدون بها أشد الاعتقاد، ويؤمنون بها كل الإيمان، يدل على ذلك سؤال هذا الأعرابي رسول الله ﷺ، وإقائه هذا الاستفهام بين يديه قائلاً: يارسول الله فما بال إبلي تكون في الرمل كأنها الظباء فيأتي البعير الأجرى فيدخل بينها فيجرها؟ فهي عقائد مستقرة في أعماق نفوسهم، فليس من السهل - والحالة هذه - إزالتها، واقتلاعها من نفوسهم، لذا سلك رسول الله ﷺ - وهو من هو في البلاغة والفصاحة - مسلكاً دقيقاً في علاج هذه النفوس، وفي انتشالها من أمراضها، حين اتخذ من أسلوب الاستفهام وسيلة لإقناع هذا الأعرابي؛ لبيان تهافت معتقده وضلاله، وكون هذا السائل أعرابياً مما سوغ أسلوب الاستفهام في هذا السياق ورشحه على غيره، فقد يتعذر إقناع هذا الأعرابي، ويصعب قياده، وقد يرفض الحقيقة ولا يقبلها لو جاءته صريحة ومباشرة، ولذا اتخذ رسول الله ﷺ أسلوب الاستفهام وسيلة في تحقيق أغراضه، لنفي تلك المعتقدات الفاسدة كلها، فأراد رسول الله ﷺ من خلال هذا الاستفهام أن يتوصل الأعرابي إلى هذه الحقائق كلها، ويقنع بها من تلقاء نفسه، بعد أن يُلقى عليه الاستفهام، ويواجهه بهذه الحقيقة.

وقد ألقى الأعرابي من خلال استفهامه شبهة قائمة في نفسه، تجعله يؤمن بالعدوى، ويقرُّ بها، بدلالة ما يراه في إبله التي تكون في الرمل كأنها الظباء، ولكن ما إن يأتي البعير الأجرى، ويدخل بينها إلا ويجريها كلها، بانتقال العدوى إليها، فقد حمل استفهامه هذه الشبهة القائمة في نفسه، ولذا فلن تُزال هذه الشبهة من نفسه، ولن تقتلع من جذورها إلا إذا تمت مراجعة هذا الأعرابي لنفسه، ووقوفه معها تأملاً ونظراً، ولن يتم هذا الأمر ويتحقق إلا من خلال أسلوب الاستفهام الذي تتم فيه المراجعة، والوقوف مع النفس، ومن هنا سلك رسول الله ﷺ هذا المسلك، وأجابه بهذا الاستفهام قائلاً: فمن أعدى الأول؟ وهذه الإجابة - كما يذكر ابن حجر^(١) - في غاية البلاغة والرشاقة، إجابة تدحض كل شبهة في نفسه، وتقتلعها من جذورها، وتجعلها أثراً بعد عين، وحاصل هذه الإجابة التي تضمنها أسلوب الاستفهام: «أن البعير الأول الذي جرب من أجره؟ أي وأنتم تعملون وتعترفون أن الله -

(١) فتح الباري: ١٠/٢٥٢ .

تعالى - هو الذي أوجد ذلك من غير ملاصقة لبعير أجرب، فاعلموا أن البعير الثاني والثالث وما بعدهما إنما جرب بفعل الله - تعالى - وإرادته)). (١)

الحديث السادس والعشرون:

حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج رسول الله ﷺ في أضحى أو فطر إلى المصلى فمرّ على النساء فقال: (يامعشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار، فقلن: وبم يارسول الله؟ قال: تكثرن اللعن، وتكفرن العشير...) (١)

الاستفهام في قولهن (بم يارسول الله)، وقد تضمن هذا الاستفهام حذفاً للمستفهم عنه، دلّ سياق الكلام عليه، والتقدير: بم كنا أكثر أهل النار، وفي هذا الحذف لطائف بيانية، فقد حُذف أولاً؛ لدلالة الكلام السابق عليه، في أخباره ﷺ لهن أنهن أكثر أهل النار، فدلّ ذلك القول عليه، وأغنى عن إعادته، كما أن في الحذف من قبل النساء دلالة من طرف خفي أنهن ينفرن من هذه الحقيقة، ولا يرغبن فيها، وكأنهن لا يؤمنن بها، ويرفضنها، فلا يردن إقرارها، ولا حتى التلفظ بها، فكان ذلك كله سبباً لهذا الحذف، والاقتراب في العبارة، واختزالها واختصارها إلى قولهن: وبم يارسول الله؟ وهو استفهام منهن عن سبب هذا الحكم وباعته الذي آل بهن أن يكن أكثر أهل النار.

ولا يخفى باعث هذا الحذف وسببه، فقد ضاق المقام بهذه المرأة، بل ضاقت بها الأرض بما رحبت، حين علمت بهذه الحقيقة، وكيف لا يضيق المقام بها، وهي تعتصر أماً وحرناً من هذا الأمر، فظهر ذلك في منطقتها، وجرى على لسانها، وقذفها بكل ألم ومرارة (بم يارسول الله) فهي لا تسأل معترضة، ولكن مستفهمة؛ لتبين الأمر، ولتعرف السبب، لتأخذ في أسباب النجاة، علها أن تنجو من النار.

وفي ندائهن لرسول الله ﷺ بالرسالة أدب منهن في مخاطبته ومناداته، واستجابة منهن لأمر الله في مخاطبة رسول الله ﷺ وندائه، ولا غرو أن يكن منهن ذلك، وهن الحريصات، الطيبات المؤمنات، فما سألهن هذا السؤال إلا حرصاً منهن في الأخذ بأسباب النجاة، والبعد عن الأعمال التي تؤدي بهن إلى النار، فسؤالهن عن السبب إنما هو من أجل البعد عن كل عمل من شأنه أن يكون سبباً لدخولهن النار. فأجابهن ﷺ بذكر صفتين ابتليت بهما النساء قديماً وحديثاً، فذكر لهن أن سبب ذلك أنهن يكثرن اللعن، ويكفرن العشير، وفي مجيء هاتين اللفظتين "يكثرن، ويكفرن" فعلاً مضارعاً دلالة على تجدد

(١) المنهاج: ٤٦٧/١٤ .

(٢) فتح الباري: ٦٢٧/٢، برقم: ١٠٥٢، صحيح مسلم: ٦٠٣/٢، برقم: ٤

حدوث هذا الفعل منهن، وتكرر وقوعه، ولذلك صار سبباً في دخولهن النار، وأي فعل أقبح من هاتين الصفتين الذميتين، أما الأولى: فهي اللعن، فهن يتلفظن باللعنة كثيراً لأدنى الأسباب وأقلها، وإنها لصفة ذميمة أن يعتاد المرء هذا اللعن، ويجريه على لسانه، وإن في معنى اللعنة - لو فقه النساء ذلك - لتنفيراً منها وتحذيراً، فالمرء لا يصيبه شيء من الخير حين يُدعى عليه بالطرد والإبعاد عن رحمة الله، وأما الصفة الثانية التي ابتليت بها كثير من النساء على امتداد العصور والأزمان فهي كفران العشير، والمراد بالعشير هنا الزوج، سُمي بذلك لمعاشرته إياها، وكثرة مخالطته لها^(١)، ويكون ذلك منهن حين لا يعترفن بفضل أزواجهن، وينكرن معروفهم عليهن، وأيديهم البيضاء السابقة والسابعة، فلا يشكرنها بل يسترنها ولا يظهرنها، وسرعان ما يحجذن ذلك كله حين يرين منهم خلاف ذلك .

وإن ذكر هاتين الصفتين وتخصيصها بالذكر لدلالة على شناعتهما، وعظم جزائهما في الآخرة، فلا غرو أن يكون جزاء النساء في ذلك أن يكن أكثر أهل النار، عياداً بالله من ذلك.

وقد دلّ هذا السؤال من النساء واستفهامهن وإجابة رسول الله ﷺ لهن على جواز عظة النساء من قبل الإمام، ولا حرج إن استدعى الأمر إلى الغلظة في النصيح متى ما كان ذلك سبباً لإزالة الصفات المعيبة في الإنسان، أو كان ذلك سبباً في إقلاعه عن أخطائه ومعاصيه.^(٢)

الحديث السابع والعشرون:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: (قيل يارسول الله من أكرم الناس؟ قال: أتقاهم، فقالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فيوسف نبي الله، ابن نبي الله، ابن نبي الله، ابن خليل الله، قالوا: ليس عن هذا نسألك، قال: فعن معادن العرب تسألون؟ خيارهم في الجاهلية، خيارهم في الإسلام إذا فقهوا).^(٣)

حين نتأمل هذا الحديث نجد أن الصحابة رضي الله عنهم سألو النبي ﷺ عن أكرم الناس دون أن يقيدوا هذا السؤال بشيء، بل جعلوه مطلقاً؛ لظنهم أنه رضي الله عنه قد علم المراد من سؤالهم، فأجابهم بأن أكرم الناس هو الأتقى، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَقَكُمُ﴾^(٤)، فأجابهم رضي الله عنهم بأكرم الكرم وأعمه، وهو

(١) انظر: عمدة القاري: ١٧١/٣ .

(٢) انظر: عمدة القارئ: ١٧٤/٣ .

(٣) فتح الباري: ٤٤٦/٦، برقم: ٣٣٥٣، صحيح مسلم: ١٨٤٦/٤، برقم: ١٦٨ .

(٤) الحجرات: ١٣ .

تقوى الله - عز وجل -؛ وذلك أن أصل الكرم هو كثرة الخير؛ لكون من كان تقياً فإنه يكون كثير الخير والعطاء في الدنيا، ويكون صاحب المنازل العالية في الآخرة. (١)

ولكن أجابه الصحابة رضي الله عنهم أنهم لا يسألون عن ذلك، ولا يقصدونه، فأجابهم رضي الله عنه أنه يوسف رضي الله عنه؛ لكونه نبياً وابن نبي، وابن نبي، ابن الخليل رضي الله عنه، وقد ظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مرادهم بالكرم هنا الشرف، فذكر يوسف رضي الله عنه؛ لكونه أشرف الناس نسباً، فهو نبي وابن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام -، وقد تضمنت هاتان الإجابتان منه صلى الله عليه وسلم أصول الشرف والمحامد كلها، فالأولى من جهة الشرف بالأعمال الصالحة، والثانية من جهة الشرف بالنسب الصالح. (٢)

ولم يكن الصحابة رضي الله عنهم يسألون عن ذلك - أيضاً - ربما لتقرر ذلك في أذهانهم، وعلمهم به، فلما نفوا ذلك - أيضاً - علم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن مرادهم من ذلك السؤال قبائل العرب وأصولهم. (٣)

وحتى يؤكد فهمه صلى الله عليه وسلم لهذا الأمر ويتيقنه سألمهم بقوله (فعن معادن العرب تسألون؟) وهذا محل الشاهد من الحديث كله، فحين نتأمل سؤاله صلى الله عليه وسلم ندرك ما تمَّ في الجملة الاستفهامية من تقديم وتأخير، وذلك أن قوله (فعن معادن العرب) متعلق بالفعل "تسألون" إذن فقد تقدم الجار والمجرور على الفعل والفاعل؛ لإرادة معنى القصر وتحقيقه، وقد اقتضى سياق الحديث هذا التقديم في الجملة الاستفهامية، وحتم وقوع الجار والمجرور بعد أداة الاستفهام، وذلكم أن مدار الأمر، والشيء الذي يسألون عنه يكون تالياً لأداة الاستفهام، فهو مناط السؤال، وهذا ما حدا برسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقدم الجار والمجرور في سؤاله، حتى يحدد مناط سؤال الصحابة رضي الله عنهم ويتبين المراد منه، ومن ثم يجيبهم عن سؤالهم، مبيناً لهم من أكرم الناس، ومن خلال هذا التقديم تبين المقصود من سؤالهم، بعدما قدَّم الجزء من كلامه لإرادة تخصيص مرادهم بالسؤال، وقصره على المراد به، فأجابهم بقوله (خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا) ومما تقدم يتبين أثر هذا التقديم وبلاغته في الجملة الاستفهامية؛ لكونه ركيزة رئيسة في الدلالة على المراد، وتحديد مقصود السائل ومراده من سؤاله.

وقد تم تشبيه أصول العرب بالمعادن؛ لكون تلك الأصول أوعية للشرف، ومقرراً لها، كما أن المعادن أوعية للجواهر، ومستقرة فيها^(٤)، ولما فيها من الاستعدادات المتفاوتة كتفاوت المعادن في اشتغالها على

(١) انظر: المنهاج: ١٥/١٤٣ .

(٢) انظر: فتح الباري: ٦/٤٧٧ .

(٣) انظر: عمدة القاري: ١٣/١٣ .

(٤) انظر: فتح الباري: ٦/٤٤٧ .

المجوهرات المتفاوتة نفاسة وغير ذلك، فكل معدن يُخرج ما في أصله، وكذلك كل إنسان يظهر منه ما في أصله من شرف ونفاسة . (١)

وقد دلّ الحديث على أن أكرم الناس أصلاً ومحتداً هم أهل المكارم والأخلاق في الجاهلية، وهم أهلها - كذلك - في الإسلام، فهم الخيار، وذلك إذا فقهوا في تعلم أصول الدين وأحكامه فقهاً وسلوكاً، ولا شك أن من كان ذلك فهو الإنسان الكامل الذي حوى المحامد كلها الحائز على شرفي الدنيا والآخرة، فلا غرو بعد هذا أن يكون أكرم الناس. (٢)

الحديث الثامن والعشرون:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (أما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام أن يجعل الله رأسه رأس حمار؟ أو يجعل صورته صورة حمار؟) (٣)

في هذا الحديث وعيد شديد، وتحذير بالغ لمن يقدم على مسابقة الإمام بركوع أو سجود، وقد تمّ التعبير عن هذا الوعيد بصورة منقّرة عنه؛ تنفيراً له، وترغيباً عنه وترهيباً، فقد توعد - سبحانه - مَنْ يفعل ذلك بأن يقلب رأسه رأس حمار.

فقد بيّن الحديث تحريم سبق الإمام بركوع أو سجود، وعاقبة هذا الفعل، ولم يرد النبي صلى الله عليه وسلم أن يبين هذا الأمر مجرداً، أو أن يذكر هذا التحريم بأسلوب خبري مباشر، فسلك في بيانه مسلكاً بياناً بليغاً، يأخذ بالقلوب والأسماع، فذكر هذا الأمر وبينه أتم بيان من خلال أسلوب الاستفهام.

تتجلى بلاغة هذا الأسلوب أن كان الغرض من الاستفهام: الوعيد، ولهذا الغرض شدة ورهبة، فيكف إذا كان الأمر المتوعد به هذا الوعيد الشديد، والتهديد الأكيد من لدن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى، إذن فقد دلّ الاستفهام على «وعيد وتحذير من أخذ الله - تعالى - له ومسخه إياه، وقلب صورته بصورة الحمار الذي هو غاية في البلادة، وإليه ينتهي ضرب المثل في الجهل والبلادة، وهذا لما عكس حكم الصلاة، ومعنى الإمامة، وصيّر نفسه بذاته إماماً جاء بغاية المناقضة والمضادة التي لا يفعلها إلا المنتهي في الجهالة كالحمار، فيخشى أن يقلبه الله في الصورة التي اتصف بمعناها» (٤)

(١) انظر: دليل الفالحين: ٢٣٧/٢ .

(٢) انظر: المنهاج: ١٥/١٤٤، دليل الفالحين: ١/٢٥١ .

(٣) فتح الباري: ٢/٢١٤، برقم: ٦٩١، صحيح مسلم: ١/٣٢٠، برقم: ١١٤ .

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم: ٢/٣٤١ .

وإنه لوعيد شديد، زاده شدة ورهبة أسلوب الاستفهام الذي استخدمه رسول الله ﷺ في ذكر هذا المعنى وبيانه، فمن الذي لا يخشى هذا الوعيد ويتقيه؟ ومن الذي يهون عليه هذا التهديد ويرتضيه؟ فالجميع يخشاه، وكلهم يعظم في نفسه هذا الأمر ويتحاشاه.

وثمة رواية أخرى لهذا الحديث وهي قوله ﷺ (ما يأمن الذي يرفع رأسه في صلاته قبل الإمام أن يحول الله صورته صورة حمار)؟^(١)، وفي هذه الرواية إشارة إلى قرب وقوع هذا الوعيد، وأنه وشيك أن يحل بمن يقدم على هذا العمل، وقد دلَّ على هذه المعاني، وأبان عنها قوله ﷺ " ما يأمن"، وهذه اللفظة عدة دلالات وإيجازات تؤكد أن مرتكب هذا العمل ليس بمأمن من هذا الوعيد، ولا بمنأى عنه، فعجباً لمن يقدم على هذا العمل أنى له أن يفعل ذلك؟! ولا أمان له من هذا الوعيد الشديد.

اختلف العلماء في معنى الوعيد المذكور في هذا الحديث، وكيفية حدوثه، فقال بعضهم: إنه وعيد معنوي؛ فالحمار موصوف بالبلادة والغباء، فذكر الحمار هنا للدلالة على جهله بما يجب عليه من متابعة الإمام، وتحريم مسابقتها، فيكون هذا الوعيد كناية عن تصييره بليداً، لا يعقل ولا يفهم، فهو كالحمار، ويرجح هذا المعنى المجازي عندهم: أن هذا التحويل لم يقع مع كثرة من يسبق إمامه بالركوع أو السجود.^(٢)

ويرى آخرون: أن الأولى إجراء هذا الوعيد على ظاهره، وحمله على الحقيقة، فهذا أمر ممكن لا يخالفه عقل، ولا يرده نقل، وليس في الحديث ما يدل على أن هذا الوعيد يقع ولا بد، حتى يُقال: إن هذا التحويل لم يقع مع كثرة الفاعلين له، وإنما دلَّ الحديث على هذا الوعيد، وأن فاعله متعرض لهذا الوعيد، ولا يلزم التعرض للشيء وقوع ذلك الشيء، وهو الحق، وهو مذهب السلف الذين حملوا هذا الحديث وأضرابه على ظاهرها.^(٣)

كما لا يخفى أن هذا الوعيد لا يظهر أثره، ولا تزداد شدة وطأته إلا حين يُحمل على حقيقته، بأن يمسح الله رأسه رأس حمار، وما ذلك على الله بعزيز، كما أن المعنى الحقيقي لهذا الوعيد هو الذي يُظهِر عِظَمَ هذا الأمر، وهو متابعة الإمام، فبعض الناس ربما لا يهमे ولا يحركه أن يوصف بالبلادة والغباء، ولكن يهتم كثيراً ويعتد لو جعل الله رأسه رأس حمار.

(١) صحيح مسلم: ٣٢١/١، برقم: ١١٥ .

(٢) انظر: فتح الباري: ٢/٢١٥، دليل الفالحين: ٤/٥٧٧ .

(٣) انظر: فتح الباري: ٢/٢١٥، دليل الفالحين: ٤/٥٧٧ .

وهذا هو المعنى المراد من الوعيد، وهو حمل الناس على متابعة الإمام، والنهي عن مسابقتها، وقرن هذا النهي، بهذا الوعيد الشديد الذي تنفطر منه النفوس، وتنزعج منه .

ولا يخفى دلالة اختيار "الحمار" من بين سائر الحيوانات في طيات هذا الوعيد، فقد ارتبط هذا الحيوان بمعانٍ كثيرة، ينفر منها الرجال الأسوياء، ويأبون أن يوصفوا بها، من البلادة والحمق والغباء، كما أنه يأتي دائماً في مقامات الذم والتوبيخ، كما لا يخفى أن في اصطفاء هذا الحيوان في هذا السياق أثراً في إظهار هذا الوعيد وإبرازه.

ولك أن تتأمل هذه الصورة "رأس حمار" فستجد أن فيها تنفيراً عن هذا العمل، فمن الذي يرضى بهذه الصورة لنفسه؟ وذلك أن النفوس تنفر من تصور هذه الصورة، وتنزعج من ورودها بمخيلتها، فكيف بمن يكون رأسه على هذا الحال؟ حين يقلب رأسه رأس حمار الذي هو غاية في البلادة، وإليه ينتهي ضرب المثل في الغباوة والحمق، « ولعل صورة الحمار عند العربي التي تستخدم في الذم، بخلاف صورة الإبل التي يألفها العربي، وتستخدم - غالباً - في المدح، لها علاقة باختيار المشبه به، في التنفير والتحذير من هذا الفعل (سبق الإمام)، والمخاطبون يدركون الصورة، ويدركون المراد منها أتم إدراك، ومن هنا يتحقق الغرض من التشبيه الوارد في الحديث »^(١).

ومما زاد هذه الصورة قبحاً وتنفيراً أن الرأس هو الذي يُقلب رأس حمار من بين سائر الأعضاء، فيالله ما أشد قبح هذا المنظر! وما أبشع هذه الصورة! والغرض من سوق هذه الصورة الكريهة: التنفير والترهيب عن مسابقة الإمام، بركوع أو سجود، وحسبك بهذا المنظر رادعاً وزاجراً عن الإقدام على هذا العمل.

ومن بلاغة الاستفهام في هذا الحديث أنه عرض هذا الوعيد والترهيب بصورة بغیضة بشعة، تنفر منها النفوس، والفطر السليمة؛ بغية التنفير منها، وردع النفوس من الوقوع في تلك الأعمال المحرمة. وبعد: فإن ذكر هذا الوعيد من خلال أسلوب الاستفهام يجعل المرء يقف معه متأملاً متدبراً، ومن ثم يظل هذا الاستفهام - بدلالاته المتعددة - عالقاً في ذهنه، لا يبرح مخيلته، ومن ثم لا يجد بداً من الاستجابة للداعي، ومتابعة إمامه في سجوده وركوعه، ولا يسبقه في واحد منهما.

وذلكم هو المراد من هذا الوعيد، وقد تحقق المراد، وتم المقصود من خلال أسلوب الاستفهام، وفي هذا دلالة على مقدرة هذا الأسلوب في أداء المعاني المنوطة به في مقامات شتى، وموضوعات متباينة.

(١) أثر التشبيه في تصوير المعنى: ٧٩ .

الحديث التاسع والعشرون:

حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: رسول الله ﷺ: (أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال ﷺ: ﴿يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُّوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ^(١)، وقال: ﷺ: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ^(٢)، ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمدُّ يديه إلى السماء يارب يارب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذاه بالحرام، فأنى يُستجاب لذلك). ^(٣)

شاهد الاستفهام في آخر الحديث، في قوله ﷺ: (فأنى يستجاب لذلك)؟ ولكن لن تظهر دلالة الاستفهام، ولن يتضح الغرض منه إلا من خلال النظر في الحديث كله، وتأمل سياقه؛ للنظر في سوابق هذا الاستفهام التي مهدت له ومن ثم دلت عليه، وكشفت الغرض منه، فذكر رسول الله ﷺ في أول الحديث حقيقة يريد تقريرها في النفوس، وتثبيتها، وهي أنه - سبحانه - طيب، ولا يقبل إلا طيباً، حقيقة وراءها وما وراءها، فيسعى المؤمن حينها أن يكون طيباً في مأكله، وملبسه، ومشربه، ولزيد من تقرير هذه الحقيقة وتأكيدا ذكر حال هذا الرجل، الذي توافر له كثير من الأسباب الموجبة لاستجابة دعائه، فهو مسافر، والسفر من مواطن الإجابة، ثم هو أشعث أغبر، قد مضى السفر وأرهقه، ثم هو يرفع يديه بالدعاء، ينادي ربه يارب يارب، وربّه - سبحانه - حيي كريم، يستحي أن يرد عبده إذا رفع يديه إليه صفراً، كما لا تخفى ما تضمنه النداء "يارب، يارب" من التضرع والتذلل لمولاه، فدلّت هذه الأحوال كلها على استحقاق الداعي للإجابة، ومع هذا كله فلا يُستجاب له، ولا يُعبأ بدعائه ولا ببؤسه؛ لأن الصارف قوي، والحاجر الذي بينه وبين ربه شديد مانع، وذلك أنه متلبس بالحرام من مفرق رأسه إلى أخمص قدميه، وأي صارف للاستجابة أشد من الحرام، فمطعمه حرام، وكذلك مشربه وملبسه، وقد غُذي بالحرام، فهذا ومن كان على شاكلته أنى يستجاب له؟ وهذه هي الحقيقة التي حُتم بها هذا الحديث، وقد تمّ ذكر هذه الحقيقة وبيانها من خلال أسلوب الاستفهام في قوله ﷺ: (فأنى يستجاب لذلك)؟

(١) المؤمنون: ٥١ .

(٢) البقرة: ١٧٢ .

(٣) صحيح مسلم: ٧٠٣/٢، برقم: ٦٥ .

ولا تخفى دلالة هذه الجملة وأثرها في النفوس، فلم يرد ﷺ أن يذكر هذه الحقيقة ابتداءً، بل ساقها لهم من خلال أسلوب الاستفهام؛ ليجعل المخاطبين يصلون إليها بأنفسهم، ويتيقنونها، فقد أدرك المخاطبون أنه لن يُستجاب لهذا الرجل، وأنه أبعد ما يكون عن استجابة دعائه؛ بسبب تلك الصوارف التي تلبس بها، فكانت حائلاً دون الاستجابة لدعائه.

وفي الإشارة إليه بالأداة البعيدة "ذلك"؛ إشارة إلى بعده عن استجابة دعائه، وأنه بعيد كل البعد من قبول دعائه، كما أنه قد بعد كل البعد عن الأمور التي بسببها يُستجاب له دعاؤه، فقد توغل كثيراً في الصوارف التي تحول بين دعائه وبين الاستجابة له، بسبب أكل الحرام ولبسه.

كما لا يخفى أن المخاطبين بالجملة الاستفهامية (فأني يُستجاب لذلك) سيكونون أبعد الناس عن الحرام، والتحرز منه، وسيسعون جاهدين في تطيب مطعمهم، وملبسهم، وهكذا تمّ لرسول الله ﷺ ما أراد من تحذيرهم من الحرام، ببيان عاقبته، وما يترتب عليه، وقد تمّ ذلك كله من خلال أسلوب الاستفهام، فقد أشركهم في الوصول إلى هذه الحقيقة، بعد أن حملهم على النظر في حال هذا الرجل، تحذيراً منه وتنفيراً.

الحديث الثلاثون:

حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ ^(١)، صعد النبي ﷺ على الصفا، فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطن قريش، حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولا؛ لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: رأيتمكم لو أخبرتمكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم؟ أكنتم مصدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم أهدا جمعتنا؟ فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۝٢﴾ ^(٢). ^(٣)

شاهد الاستفهام في الحديث في قوله ﷺ (أرأيتمكم لو أخبرتمكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم؟ أكنتم مصدقي؟)، وقد تعمدت ذكر الحديث بتمامه؛ ليتبين لنا سياق الحديث، للوقوف عند الأجواء المحيطة بهذا الاستفهام؛ لأن له أثراً لا يخفى في كشف دلالات هذا الاستفهام وإيضاحه.

(١) الشعراء: ٢١٤ .

(٢) المسد: ٢٠١ .

(٣) فتح الباري: ٣٦٠/٨، برقم: ٤٧٧٠، صحيح مسلم: ١٩٣/١، برقم: ٣٥٥ .

مما تحسن الإشارة إليه أن صعوده ﷺ على الصفا، ونداءه لبطن قريش، ومن ثم مخاطبتهم بهذا الأسلوب البياني الرفيع كان استجابة لأمر ربه له في قوله " وأندر "، ومن ثم كان منه ﷺ هذا الجهد، وذلك النصح في الإنذار، كما أن هذا الإنذار قد تطلب هذا الأسلوب الفخم الجزل، فمن شأن الإنذار أن يكون قوياً؛ ليكون رادعاً زاجراً لهؤلاء الأقسام الذين شبوا على الشرك، وشابوا عليه، فهم بحاجة إلى وعيد شديد، وتخويف وتهديد، وحسبك بأسلوب الاستفهام زاجراً ورادعاً، ومن لذا اتخذ ﷺ وسيلة إنذار في هذا المقام، ومن هنا يتبين سرُّ إثارة أسلوب الاستفهام في هذا المقام مقام الإنذار، وجعله مقدمة للحقيقة التي أراد ﷺ بيانها لهم، وتذكيرهم بها، وفي البدء بالاستفهام، وجعله مقدمة بين يدي هذا الإنذار إشارة منه ﷺ إلى أهمية هذا الأسلوب، وإعلاء من قدره، وبيان لمقدرته على جذب الانتباه، ولفت الأنظار إليه.

أراد ﷺ من خلال أسلوب الاستفهام في قوله ﷺ (أرأيتم لو أخبرتم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم؟ أكنتم مصدقي)؟ أن يذكرهم بما هو متقرر في نفوسهم، ومتعارف لديهم عنه، وهامهم يعترفون بهذه الحقيقة، وينطقون بها قائلين: (نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً)، وفي ذكر هذه الحقيقة من خلال أسلوب القصر تحقيق لها، وتأكيداً لها، فهو أمر مقرر لديهم، لا يقبل شكاً ولا نزاعاً، يصدقه الواقع الذي يعيشون فيه، فقد عرفوه صادقاً أميناً، بل لقبوه بالصادق الأمين.

وحين نظر في الاستفهام الذي ذكره رسول الله ﷺ لهم نجد في طياته حقيقة لا يختلف اثنان حولها ولا يتنازعان فيها، فلماذا هذا الأسلوب؟ وما الحكمة في تصدير الاستفهام بقوله " أرأيتم؟ " وما الغرض من الجمع بين علامتي الخطاب: التاء والكاف؟ فلماذا كل هذا؟ وهم مقرون بهذه الحقيقة، ومعتفون بها؟ بيد أن هذه الحقيقة لم تكن مقصودة لذاتها، فقد جعلها مقدمة وتوطئة للإنذار الذي أمره الله - عز وجل - به، فقد أراد ﷺ أن ينطلق من هذه الحقيقة المقررة عندهم إلى حقيقة أكبر منها وأهم، وهي التي ينكرون.

كما أن حال القوم، وما طُبعوا عليه من التكذيب والعناد قد اقتضت هذه المقدمة، فيريد ﷺ أن يترقى في مخاطبتهم، وأن يلين مع هذه النفوس، دون أن يسلك مسلك المواجهة والمجاهمة، فقد كان حريصاً على هدايتهم، وعلى دخولهم في هذا الدين أفواجاً، فبعد أن انقادوا له، وتجاوبوا معه، وذكروا صدقه، بعد ذلك بيّن لهم غرضه الرئيس من ذلك، مشيراً إلى أنه نذير لهم بين يدي عذاب شديد.

وفي تصدير الخبر بـ"إنَّ" تأكيد لهذا الأمر، وتقدير له، فلعل وعسى أن يجد هذا الأسلوب المؤكِّد إلى قلوبهم سبيلاً وطريقاً، إلا أن شقوتهم غلبت عليهم، وحال كفرهم وعنادهم دون الانصياع إلى هذا الإنذار، وقد منعهم غرورهم من الإيمان بالله، واتباع الرسول ﷺ، فنطق بذلك أشقاهم معبراً عن هذا العناد والصلف والغرور الذي يملأ قلوبهم قائلاً: (تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعنا)؟
وبعد: فمن خلال تأملنا لهذا السياق كله ندرك سرَّ توافر علامتي الخطاب والتنبيه في الجملة الاستفهامية في قوله (أرأيتمكم)، فقد اقتضت طبيعة الموقف هذه الأمور كلها، كما أن في ذلك إعداراً لهم، ومزيداً من البيان، وإبراء الذمة، والقيام بهذا الإنذار على أكمل وجه، وفي ذلك - أيضاً - توجه بالخطاب لهم، ومواجهتهم بهذا الإنذار، وإبلاغهم به؛ لإقامة الحجة عليهم؛ لعلهم يتقون .

الحديث الواحد والثلاثون:

حديث حذيفة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: (تلقتُ الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم، فقالوا: أعملت من الخير شيئاً؟ قال: كنتُ أمر فتياي أن ينظروا ويتجاوزوا عن المعسر، قال: فتجاوزوا عنه).^(١)
شاهد الاستفهام في الحديث في قول الملائكة (أعملت من الخير شيئاً)، وقد تضمنت الجملة الاستفهامية تقديماً وتأخيراً، فقد تقدم الجار والمجرور "من الخير" على المفعول "شيئاً" ولهذا التقديم أثره في هذا السياق، ودلالاته المهمة - كذلك - في الجملة الاستفهامية، وفي تحقيق معناه، يتجلى ذلك من خلال اللفظة المقدَّمة وإجاءاتها، ومن خلال السياق والموقف الذي قيلت فيه تلك الجملة الاستفهامية، فأما سياقها فقد قيلت الجملة الاستفهامية حين نُزعت روح ذلكم الرجل حين جاءه الملك ليقبضها، فقد قيلت له هذه الجملة بعد ما قضى نَجبه، وخرجت روحه من جسده، وحيل بينه وبين العمل، فليس ثمة إلا الحساب والجزاء، ولا يخفى ظلال هذا الموقف ورهيبته.

وأما اللفظة المقدَّمة فهي كلمة "الخير" فهي مناط السؤال، وعليها مدار الاستفهام، ولا يخفى السرُّ في سؤال الملك عن الخير الذي قام به هذا الرجل في حياته، فقد جاء التقديم ليفيد أن ليس من عمل مُجدٍ سوى أعمال الخير والبر، فهي الأعمال التي يرجو الناس نفعها وثوابها، والجزاء الحسن من جرائها، وما عدا ذلك فهي وبال عليهم وشؤم، سرعان ما يتبرؤون منها، ويتمنون أن بينهم وبينها بعد المشركين، ولكن هيهات هيهات.

(١) فتح الباري: ٤/٣٦٠، برقم: ٢٠٧٧، صحيح مسلم: ٣/١١٩٤، برقم: ٢٦ .

في ذكر " الخير " في هذا السياق وتقديمه على غيره دلالة مهمة، ففيه الحثُّ على أعمال الخير، والمسارة فيها، فهي التي تبقى للإنسان بعد موته، ويبقى له أجرها وذخرها، وهو أحوج ما يكون إليها، فلن ينجيه في تلك المواقف والأحوال إلا عمله الصالح - بعد رحمته - سبحانه . له، وقبوله إياها .

وقد دلَّ على هذه المعاني، وأشار إليها تقديم هذه اللفظة " من الخير " في الجملة الاستفهامية، ومن هنا يتبين دلالات هذا الأسلوب وبلاغته، وأثره في سياقه الذي ورد فيه، وتحقيقه للأغراض المنوطة به.

وقد دلَّ الحديث على أن اليسير من الحسنات مع الإخلاص يُكفر كثيراً من السيئات، ويكون سبباً لتجاوز الله عنه، ومغفرة ذنوبه^(١)، وألاً يحتقر العبد المسلم من المعروف شيئاً من أفعال الخير، فقد يكون ذلك مع الإخلاص سبباً لمغفرة ذنوبه، وسعادة في الدارين. ^(٢)

كما أن فيه دلالة على سعة فضله - سبحانه وتعالى - وكرم إحسانه ورحمته بعباده، فهو - سبحانه - يجازيهم الجزاء الأوفى على اليسير من أعمالهم، وفيه دلالة على أن الجزاء من جنس العمل، فقد تجاوز عنه - سبحانه - في أضيق المواقف وأحلكها، فقد كان هذا الرجل متسامحاً مع الناس، ومتجاوزاً معهم، فتجاوز عنه - سبحانه - وغفر له سيئاته جزاءً وفاقاً، فهو - سبحانه - أهل الفضل والوجود .

الحديث الثاني والثلاثون:

حديث أسامة رضي الله عنه قال: (بعثنا رسول الله إلى الحُرقة، فصَبَّحنا القوم، فهزمناهم، ولحقتُ أنا ورجل من الأنصار رجلاً منهم، فلما غشيناها قال: لا إله إلا الله، فكفَّ الأنصاري، فطعنته برمحي، فلما قدمنا بلغ النبي، فقال: يا أسامة أقتلته بعدما قال لا إله إلا الله؟ قلت: كان متعوذاً، فما زال يكررها، حتى تمنيت أني لم أكن أسلمتُ قبل ذلك). ^(٣)

شاهد الاستفهام في قوله رضي الله عنه (يا أسامة أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله؟)، ولا يخفى الغرض من الاستفهام، فمراده من ذلك: الإنكار، فقد أنكر على أسامة رضي الله عنه إقدامه على هذا العمل، وقتله للرجل بعد أن قال لا إله إلا الله، وقد أغلظ رضي الله عنه في إنكاره على أسامة، وفي ذلك دلالة على عظم فداحة ما أقدم عليه، وهل أعظم من قتل رجل مسلم قال لا إله إلا الله؟ وهي العاصمة لدم قائلها.

(١) انظر: فتح الباري: ٣٣٨/٤ .

(٢) انظر: المنهاج: ٤٨٤/١٠ .

(٣) فتح الباري: ٥٩٠/٧، برقم: ٤٢٦٩، صحيح مسلم: ٩٥/١، برقم: ١٥٨ .

وقد تعددت روايات هذه الجملة الاستفهامية، ولكنها على تعددها لا تخرج عن الدلالة على هذا الغرض، بل تحققه، وتزيد من معنى الإنكار فيه، ومن إظهاره، فثمة رواية لمسلم أن رسول الله ﷺ : (أقال لا إله إلا الله وقتلته)؟^(١)، والفرق بين هذه الرواية والتي قبلها أنه في هذه الرواية قُدِّم قوله (لا إله إلا الله) على " القتل "، وفي هذا إشارة إلى عِظَم هذه الكلمة، وأن قوله لها كان كافياً لعصمة دمه، ورادعاً من الإقدام على قتله، بخلاف الرواية الأولى التي قُدِّم فيها "القتل"، وفي ذلك إشارة إلى شناعة هذا العمل الذي أقدم عليه أسامة رضي الله عنه، وهو القتل.

وثمة رواية أخرى عند مسلم - أيضاً - : وهو قوله ﷺ (وكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة)؟^(٢)، وقد تضمنت الجملة الاستفهامية الإنكار أيضاً، من خلال الإشارة إلى عِظَم كلمة التوحيد، ببيان أنها عاصمة لدم صاحبها في الدنيا إلا بحقها، كما أنها مانعة من خلود صاحبها في النار، وفي ذلك إشارة إلى أن هذه الكلمة ستحتاج عن صاحبها يوم القيامة، فماذا عسى أسامة رضي الله عنه أن يفعل إزاءها؟ وقد أدى الاستفهام الغرض منه، فكان موجعاً لأسامة رضي الله عنه، تأثر به أبلغ الأثر وأعماقه؛ فالإنكار من خلال أسلوب الاستفهام أشد ألماً، وأقوى أثراً في النفوس، ففيه مواجهة للمخاطب بفداحة عمله بأسلوب يبصره بشناعة ما أقدم عليه، فيجعله يدرك من تلقاء نفسه عظيم جنايته، وسوء فعله، فيزداد بذلك ألمه وحسرتة، وفي الإنكار عليه من خلال أسلوب الاستفهام إيلام في الإنكار، « وإبلاغ في الموعدة؛ حتى لا يقوم أحد بقتل من تلفظ بالتوحيد ». ^(٣)

ولم يكتفِ رضي الله عنه بأسلوب الاستفهام في الإنكار عليه، فأضاف إليه أسلوباً آخر في الإنكار، وهو أسلوب التكرار، وقد تضافر هذا الأسلوبان - بما توافر في كل واحد منهما - في الدلالة على الإنكار، والسعي في تحقيقه، فكان ذلك سبباً في تألم أسامة رضي الله عنه من هذا الإنكار، والتأثر به الأثر البالغ، فكان وقع الإنكار عليه شديداً، فلم يطق احتمالها، والصبر عليه، وقد عبّر عن تأثره بهذا الإنكار بقوله (حتى تمنيت أني لم أكن أسلمت قبل ذلك).

وقد دلّ هذا القول منه على تأثره البالغ من أسلوب رسول الله ﷺ في مخاطبته، والإنكار عليه، وفي هذا دلالة على بلاغة أسلوب الاستفهام، فلن تجد أبلغ منه في الدلالة على الإنكار، وفي تحقيق

(١) صحيح مسلم: ٩٦/١، برقم: ١٥٨ .

(٢) صحيح مسلم: ٩٨/١، برقم: ١٦٠ .

(٣) فتح الباري: ٢٠٣/١٢ .

الأغراض المنوطة به، فمن خلال هذا الأسلوب يصيب المتكلم به المحز، ويحقق مراده، وكثيراً من الأغراض التي قد لا تتوافر في كثير من الأساليب عدا هذا الأسلوب، وكل بحسب مقامه وسياقه .

الحديث الثالث والثلاثون:

حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: (يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: الله ورسوله أعلم، قال: يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟ قال: قلت: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾^(١)، قال: فضرب في صدري، وقال: ليهنك العلم يا أبا المنذر).^(٢)

تضمن الحديث خبراً مهماً له قدره وأهميته في نفس من أخبر به، وقد دلّ على ذلك أسلوب الحديث، وطريقة الإخبار به، وبيان ذلك: أن رسول الله ﷺ لم يذكر هذا الخبر ابتداءً، ولم يذكره دون توطئة له، ومقدمات تدل على أهميته، وتشير إلى مكانته، ولكن ساقه من خلال أسلوب الاستفهام في قوله ﷺ (يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟)

وقد دلت صيغة السؤال، وبنائه التركيبي على الحفاوة البالغة بهذا الخبر، فقد مهد ﷺ لهذه الجملة الاستفهامية بالنداء في قوله ﷺ (يا أبا المنذر)، وفي هذا النداء تنبيه له، وطلب الإقبال عليه بفكره وقلبه؛ إشعاراً بأهمية الخبر الذي سيذكره له، إذ لا يصح أن يلقي إليه الخبر المهم وهو سادر أو شارده، ثم أتبع نداءه بالاستفهام في قوله (أتدري أي آية معك من كتاب الله أعظم؟)، ولا يخفى أثر هذا الاستفهام ودلالته في هذا السياق.

وقد تضمنت الجملة الاستفهامية كثيراً من الإشارات والدلالات المهمة، فمن ذلك: لفظة "معك"، فإن لها في الجملة الاستفهامية دلالة مهمة، ففيها الإشارة إلى أن الآية التي يسأل عنها رسول الله ﷺ ليست بعيدة عنه، أو أنه لا علم له بها، بل هي قريبة منه كل القرب، بل هي معه، مستقرة في صدره، ينقلها معه حيثما سار، وهذا هو المكان اللائق بها، القمين بآيات الذكر الحكيم كلها، فهي في الصدور، وليست في السطور.

وقد تضمنت الإضافة في قوله ﷺ "كتاب الله" تعظيم الكتاب وتشريفه، فقد ازداد هذا الكتاب عظمة وشرفاً كونه كتاب الله، تكلم به من فوق سبع سموات، وأنزله لهذه الأمة هداية ومنهاجاً.

(١) البقرة: ٢٥٥ .

(٢) صحيح مسلم: ٥٥٦/١، برقم: ٢٥٨ .

ولم يرد في السؤال المفضل عليه، وإنما وردت "أعظم" وحدها، أعظم من ماذا؟ لم يذكر هذا في السؤال، ولهذا الحذف دلالة المهمة في هذا السياق، فلها العظمة المطلقة، وليس ثمة شيء يوازيها في العظمة حتى يُذكر معها، وذلك على حد قول المؤذن "الله أكبر".

وفي تكريره ﷺ للجملية الاستفهامية في هذا الحديث دلالة على اهتمامه البالغ بهذا الخبر، وحفاوته به حفاوة كبيرة، وهو اهتمام يليق بهذه الآية، ويتناسب مع عظمتها ومكانتها.

وحين نتأمل إجابة كعب رضي الله عنه عن سؤال رسول الله ﷺ نجد أمراً لافتاً يستوقفنا في هذا المقام؛ للإشارة إلى دلالاته، فقد أجاب أولاً بقوله (الله ورسوله أعلم)، ثم أجاب ثانياً بقوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، والسرُّ في هاتين الإجابتين، والدافع لهما في نفس أبي بن كعب رضي الله عنه هو أن «سؤال الرسول ﷺ للصحابة رضي الله عنهم في باب العلم إما أن يكون للحث على الاستماع لما يريد أن يلقي عليه، أو للكشف عن مقدار فهمه، ومبلغ علمه، فلما راعى الأدب بقوله (الله ورسوله أعلم)، ورآه لا يكتفي بذلك، وأعاد السؤال علم أنه يريد بذلك استخراج ما عنده من مكنون العلم فأجاب عنه»^(١).

وقد أقره الرسول ﷺ على هذه الإجابة، بل سرَّ بها سروراً بالغاً، يدل على ذلك ضربه على صدره مهنئاً له بهذا العلم الذي يضمه بين برديه، ويحمله بين جنبيه، قائلاً: (ليهنئك العلم يا أبا المنذر)، ومراده بذلك رسوخه في العلم، وثباته فيه، وقد عبر ﷺ عن هذا المعنى بأمره للعلم أن يكون هناء له، وهو الأمر الذي يأتيه من غير عناء ولا مشقة^(٢)، وفي هذا إشارة أنه «راسخ في العلم، ومجيد فيه؛ لأنه طبَّق المفصل، وأصاب المحز، وأما ضربه في صدره فتنبيه على أن انشراحه وامتلاءه علماً وحكماً»^(٣).

الحديث الرابع والثلاثون:

حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقول الله - تعالى -: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من إيمان فيخرجون منها قد اسودوا، فيلقون في نهر الحياء أو الحياة، - شك مالك - فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل، ألم تروا أنها تخرج صفراء ملتوية)؟^(٤)

(١) الكاشف عن حقائق السنن: ٢٢٧/٤ .

(٢) انظر: دليل الفالحين: ٥١٢/٣ .

(٣) الكاشف عن حقائق السنن: ٢٢٨/٤ .

(٤) فتح الباري: ٩١/١، برقم: ٢٢، صحيح مسلم: ١٧٢/١، برقم: ٣٠٤ .

شاهد الاستفهام في الحديث في قوله ﷺ (ألم تروا أنها تخرج صفراء ملتوية)؟، وقد ذكر النبي ﷺ هذه الجملة في معرض حديثه عن هؤلاء الذين من الله عليهم بالخروج من النار، ودخول الجنة، أراد النبي ﷺ من هذا الاستفهام أن يبين هيئتهم حين يخرجون من نهر الحياء أو الحياة بعدما يُلقون فيه، فذكر أنهم ينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل، ووجه الشبه متعدد في هذا التشبيه، وقد أشار العيني إلى هذا الأمر، يقول: «وهو تشبيه من حيث الإسراع، وهو من حيث ضعف النبات، ومن حيث الطراوة والحسن، والمعنى: من كان في قلبه مثقال حبة من الإيمان يخرج من ذلك الماء نضراً حسناً، منبسطاً متبختراً، كخروج هذه الريحانة من جانب السيل صفراء ملتوية». (١)

إذن فهذه هي هيئتهم، وهذا هو حالهم، وحسن منظرهم، ولمزيد من بيان هذه الصورة وإيضاحها، ولمزيد من تأكيد هذا المعنى وتقريره أتبع رسول الله ﷺ هذا التشبيه بالاستفهام في قوله ﷺ (ألم تروا أنها تخرج صفراء ملتوية)؟، وفي هذا الاستفهام تقرير لما سبق ذكره، وتأكيد لذلك الحسن والطراوة التي كانوا عليها حين خرجوا من نهر الحياة، وكيف لا يكونون كذلك؟ وهم كتلك النبتة الصفراء التي تسر الناظر إليها، ثم هي - كذلك - ملتوية، أي متشعبة منعطفة، وهذا مما يزيد الروض حسناً وبهاءً أن تراه حسناً ناضراً باهتزازة وتمايله. (٢)

وهذه الصورة التي ذكرها رسول الله ﷺ معروفة لديهم، وحاضرة في أذهانهم، فهي مستمدة من البيئة العربية، فالمخاطبون يعرفون هذه الصورة معرفة دقيقة، ويرونها رأي العين في حياتهم، فما أكثر ما يرى الواحد منهم هذا المشهد في أعقاب الأمطار، يرى ذلك النبات الذي ينبت في جانب السيل وغطائه، صورة رائعة، ومشهد بديع حاضر، أخذ بألباب الحاضرين وأبصارهم، حتى قال أحدهم حين سمع من الرسول ﷺ هذا المثال: (كأن رسول الله قد كان في البادية)! (٣)

إذن فقد جاء الاستفهام (ألم تروا أنها تخرج صفراء ملتوية)؟ تأكيداً لمعنى التشبيه الذي تقدمه، وتقريباً له، فحسبك بالروض جمالاً أن تراه مهترأً متمائلاً متشعباً .

ومن هنا يتبين لنا القيمة الجمالية لأسلوب الاستفهام، والأثر الكبير الذي يؤديه حين يأتي في أعقاب المعاني، فيزيدها تأكيداً وبياناً، ويرسخها تقريراً في النفوس وتثبيتاً، وهذا هو التوظيف الحسن لهذا

(١) عمدة القاري: ١٧٢/١ .

(٢) انظر: إرشاد الساري: ١٥٢/١ .

(٣) انظر: التصوير الفني في الحديث النبوي: ٢٠٧ .

الأسلوب حين يأتي خدمة لإظهار مثل هذه المعاني الجليلة وتأكيدهما، فلم يكن هذا الأسلوب مقصوداً لذاته، بل كان وسيلة وسبباً في بيان هذه المعاني وجلالتهما.

الحديث الخامس والثلاثون:

حديث عوف بن مالك رضي الله عنه قال: (قتل رجل من حمير رجلاً من العدو، فأراد سلبه، فمنعه خالد، وكان والياً عليه، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم عوف بن مالك فأخبره، فقال: لخالد: مامنك أن تعطيه سلبه؟ قال: استكثرت يارسول الله، قال: ادفعه إليه، فمّر خالد بعوف فجرّ بردائه، ثم قال: هل أنجزت لك ما ذكرت لك من رسول الله، فسمعه رسول الله فاستغضب، فقال: لاتعطه ياخالد، هل أنتم تاركو لي أمرائي؟ إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل استرعى إبلاً وغنماً فرعاها، ثم تحين سقيها، فأوردها حوضاً فشرعت فيه، فشربت صفوه، وتركت كدره، فصفوه لكم، وكدره عليهم).^(١)

شاهد الاستفهام في الحديث في قوله صلى الله عليه وسلم (هل أنتم تاركو لي أمرائي)؟، وقد ذكرت الحديث بتمامه؛ ليكون كاشفاً عن المعنى المراد من الاستفهام، ومبيناً له أتم بيان، فقد قال صلى الله عليه وسلم هذه الجملة الاستفهامية عتاباً على ذلك الصحابي؛ لما بدر منه تجاه خالد بن الوليد رضي الله عنه، ولم يقف الأمر عند هذا العتاب، بل توجه إليه بالأمر من خلال أسلوب الاستفهام أن يتركوا أمراءه، وألاً يتعرضوا لهم، أو ينالوا منهم، أو يتجاوزوا الأدب في التعامل معهم بأي حال من الأحوال.

وتكمن بلاغة هذا الأمر أن جاء بصورة الاستفهام؛ ليكون أوقع في النفس؛ لما يتضمنه من الأثر البالغ في النفوس، إذ يُلقى عليها هذا الاستفهام فيظل متردداً في حنايا النفس وزواياها، فلا تجد بداً من التجاوب معه، والامتثال له، ومن ثم تستجيب بعد ذلك طواعية واختياراً، ولن تجد النفس مناصاً من الاستجابة لأمر الله، وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم.

وتأكيداً لمعنى الأمر الذي تضمنه أسلوب الاستفهام أتبعه صلى الله عليه وسلم بهذا المثل البليغ الذي يبين فيه معاناة الولاة مع رعاياهم، وما يبذلونه لهم، ومع ذلك فإنهم لا يسلمون منهم، فيطوهم الأذى، في قوله صلى الله عليه وسلم (إنما مثلكم ومثلهم كمثل رجل استرعى إبلاً وغنماً فرعاها، ثم تحين سقيها، فأوردها حوضاً فشرعت فيه، فشربت صفوه، وتركت كدره، فصفوه لكم، وكدره عليهم) والمعنى: «أن الرعية يأخذون صفو الأمور، فتصلهم أعطياتهم بغير نكير، وتُبتلى الولاة بمقاساة الأمور، وجمع الأموال على وجوهها، وصرفها في

(١) صحيح مسلم: ٣/١٣٧٣، برقم: ٤٣.

وجوهها، وحفظ الرعية، والشفقة عليهم، والذب عنهم، وإنصاف بعضهم من بعض، ثم متى ما وقع علقه، أو عتب في بعض ذلك توجه على الأمراء دون الناس». (١)

فهذا هو معنى هذا المثل ومحتواه، بيد أن رسول الله ﷺ سلك في ذكره مسلكاً بليغاً في بيانه، فقد اتخذ من أسلوب التشبيه وسيلة لبيان هذا المثل وإيضاحه؛ ليُقرِّبه إلى الأفهام، فقد شبه ﷺ حال الرعية مع ولائها، وما يكون بينها بحال الراعي الذي استرعى إبلاً، ولم يأل جهداً في رعايتها، فقد تحَيَّن سقيها، فأوردها حوضاً فشرعت فيه، فشربت الإبل منه صفوه، وتركت كدره، وكذلك هو حال الولاية مع رعيته، وتتجلى بلاغة هذا المثل، وقيمته أنه مقتبس من البيئة العربية، فهم يألفون هذه الصورة، ويعايشونها، وتقع تحت أبصارهم كثيراً، وهذا هو سرُّ تأثير هذه الأمثال في النفوس، ونفوذها فيها. (٢)

وهكذا تتوافر هذه الأساليب فيما بينها في هذا الحديث لإظهار معنى الأمر وتحقيقه، يتجلى ذلك من خلال أسلوب الاستفهام، الذي تضمن معنى الأمر، ومن خلال التشبيه التمثيلي، الذي ضربه ﷺ مثلاً لبيان حال الراعي والرعية، وقد تضافرت هذه الأساليب كلها في تحقيق معنى الأمر؛ ليكون ذلك أدعى لنفوس المتلقين للاستجابة له، وقبوله، ومن ثم الامتثال له؛ ليعرفوا بعد ذلك حق أمرائهم، فيقدروهم قدرهم، ويقوموا بحقهم .

الحديث السادس والثلاثون:

حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: (دخلتُ على النبي ﷺ وهو يوعك فحسسته، فقلت: إنك لتوعك وعكاً شديداً، قال: أجل (٣) كما يوعك رجلان منكم، قال: لك أجران؟ قال: نعم، ما من مسلم يصيبه أذى مرض فما سواه إلا حط الله سيئاته كما تحط الشجرة ورقها). (٤)

شاهد الاستفهام قول ابن مسعود رضي الله عنه (لك أجران؟)، وقد تضمنت الجملة الاستفهامية تقديماً وتأخيراً، فقد تقدم فيها الجار والمجرور " لك " وهو خبر، على المبتدأ "أجران "، وقد أفاد التقديم التخصيص، وقصره على رسول الله ﷺ، فقد أبان الجملة الاستفهامية من خلال هذا التقديم منزلة رسول

(١) المنهاج: ٣٠٩/١٢ .

(٢) انظر: أثر التشبيه في تصوير المعنى: ٢١٠ .

(٣) أجل: بسكون اللام، حرف جواب مثل "نعم"، تكون تصديقاً للمخبر، وإعلاماً للمستخبر، ووعداً للطالب، فتكون جواباً لمن قال: جاء زيد، وأقام زيد؟ وأكرم زيداً، ولا تكون جواباً للنفي ولا للنهي (انظر: مغني اللبيب: ٢٠/١، رصف المباني في شرح حروف المعاني: ١٤٨، حروف المعاني: ١٥١) .

(٤) فتح الباري: ١٠/١٢٨، برقم: ٥٦٦٧، صحيح مسلم: ١٩٩١/٤، برقم: ٤٥ .

الله ﷻ، وما خصه الله به من الأجر والثواب المدخر له في الآخرة، ومن هنا كان التقديم في الجملة الاستفهامية وسيلة في الدلالة على هذا المعنى، والإبانة عنه، وقد جاء التقديم - بهذه الدلالة، وذلكم الغرض - تأكيداً لقوله ﷻ (أجل كما يوعك رجالان منكم)، فقد بينت هذه الجملة ما خص الله به رسوله، وما انفرد به عن أمته .

وقد وردت رواية أخرى لهذه الجملة الاستفهامية عند البخاري، وهي (... فقلت: إنك لتوعك وعكاً شديداً، قلت: إن ذاك بأن لك أجرين)^(١)، وحين نتأمل هذه الرواية نجد أن في الجملة الاستفهامية تقدماً وتأخيراً كذلك، فقد تقدم فيها خبر " أن"، وهو " لك" على اسمها "أجرين"، والغرض البلاغي من التقديم هو الغرض نفسه الذي دلت عليه الرواية الأولى، وهو إرادة التخصيص، ومجيء التقديم والتأخير في الجملة الاستفهامية في كلا الروايتين إشارة إلى التأكيد على تحقيق هذا المعنى، والإشادة به، يدل على ذلك توافر أدوات التأكيد في إخبار هذا الصحابي ﷺ بشدة وعك النبي ﷺ، فقد أكد ذلك بـ " إن، واللام " في قوله (إنك لتوعك).

والحكمة في كون الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - أشد الناس بلاء، ثم الأمتل فالأمتل ((أنهم مخصوصون بكمال الصبر، وصحة الاحتساب، ومعرفة أن ذلك نعمة من الله؛ ليتم لهم الخير، ويضعف لهم الأجر، ويظهر صبرهم ورضاهم))^(٢)، وفي هذا دلالة على أن البلاء في مقابل عظم النعمة، فمن كانت نعم الله عليه كثيرة، كان بلاؤه أشد ممن هو دونه في المنزلة والمكانة .

وبعد أن بيّن رسول الله ﷺ ما خصه الله به، وما تفضل به عليه، ذكر ما أعدّ - سبحانه وتعالى - لأمته من الجزاء والثواب جزاء صبرها على ما يصيبها من المصائب والآلام في قوله (ما من مسلم يصيبه أذى مرض فما سواه إلا حط الله سيئاته كما تحط الشجرة ورقها)، وهو مثل بليغ، بيّن فيه ﷻ سعة فضل الله - عزّ وجل - على عباده، ومزيد تفضله عليهم، وقد ذكر الطيبي بلاغة هذا المثل في قوله ((شبه حال المريض وإصابة المرض جسده، ثم محو السيئات عنه سريعاً بحالة الشجرة، وهبوب الرياح الحريفية، وتناثر الأوراق منها سريعاً، وتجردتها عنها، فهو تشبيه تمثيلي، ووجه التشبيه: الإزالة الكلية على سبيل السرعة، لا الكمال والنقصان؛ لأن إزالة الذنوب عن الإنسان سبب كماله، وإزالة الأوراق عن الشجر سبب نقصانه))^(٣) .

(١) فتح الباري: ١٠/١١٥، برقم: ٥٦٤٧ .

(٢) المنهاج: ٣٦٦/١٦ .

(٣) الكاشف عن حقائق السنن: ٢٩٨/٣ .

الحديث السابع والثلاثون:

حديث أبي حميد الساعدي قال: (استعمل النبي ﷺ رجلاً من بني أسد، يقال له: ابن الأُتَيْبَةِ على صدقة، فلما قدم قال: هذا لكم، وهذا أهدي لي، فقام النبي ﷺ على المنبر، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: ما بال العامل نبعثه فيأتي فيقول: هذا لكم، وهذا لي؟ فهلا جلس في بيت أبيه وأمه فينظر أيهدى له أم لا؟ والذي نفسي بيده لا يأتي بشيء إلا جاء به يوم القيامة فيحمله على رقبته، إن كان بعيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر^(١)، ثم رفع يديه حتى رأينا عفرتي إبطيه: ألا هل بلغت ثلاثاً^(٢))

شاهد الاستفهام في الحديث في قوله ﷺ (ما بال العامل نبعثه فيأتي فيقول: هذا لكم، وهذا لي؟) والغرض منه: الإنكار، وهذا الغرض واضح جلي من سياق الحديث كله، فقد أنكر ﷺ على هذا العامل الذي استعمله على الصدقة تصرفه هذا وقوله، وبلغ به الإنكار مبلغاً عظيماً، حملة ذلك أن يخطب في الناس، وأن يُعلن هذا الإنكار على الملأ، وأن يبين لهم سوء هذا العمل، وعاقبته الوخيمة في الآخرة . ولتعظيم هذا الإنكار، ولبيان خطره اتخذ ﷺ من الاستفهام سبيلاً لتحقيق هذا الغرض، وتمكينه في النفوس، فمن خلال هذا الاستفهام سيتيقن هذا العامل سوء عمله، وخطأ تصرفه، وسيدرك عاقبة هذا العمل وفداحته، وسيعلم أنه ارتكب خطأ عظيماً في حق نفسه، وفي حق هذه الأمانة التي تولاهها، واستعمله رسول الله ﷺ عليها.

فسيدرك المخاطب هذا كله - من خلال أسلوب الاستفهام - وسيتبين الأمر، بعد أن يزيل الإنكار الغشاوة التي على عينيه، وبعد أن ينقشع ذلك الختم الذي كان على قلبه بسبب حب هذا المال، وإرادة تملكه .

ومن هنا تتجلى بلاغة هذا الاستفهام في هذا المقام، حين استخدمه رسول الله ﷺ في الدلالة على الإنكار، فقد كان الاستفهام وسيلة طيبة وبلغية في الوصول إلى هذا المعنى وتحقيقه . ومع شدة إنكاره ﷺ لهذا العمل، ومع معرفته للعامل الذي صدر منه هذا العمل إلا أنه لم يوجه هذا الإنكار إليه، ولم يخاطب به «فرداً معيناً، بل تحدث عن فرد شائع في المجتمعات؛ ليعم الحكم كل من ولي عملاً للأمة، وحدة الانفعال تظهر في عبارة الاستفهام التي تعيد المخطئ إلى تدبر حاله إذا اعتزل الولاية فجلس في بيت أبيه وأمه أكان يُهدى إليه ما يدعي؟ فإذا أجاب نفسه بالنفي - وهو لا شك مجيهاً

(١) معنى تيعر: أي تصوت، فهو صوت العنز، وهو الشديد من أصوات الشاء. (انظر: القاموس المحيط، مادة: يعر)

(٢) فتح الباري: ١٣/١٧٥، برقم: ٧١٧٤ .

بالنفي - استيقن أن ما احتبسه باسم الهدية هو مال المسلمين، حصوله في يده بسبب ولايتهم، وسلطانه بينهم، فيستيقظ ضميره من خديعة استجره الشيطان إلى حتفه) (١)

ولا يخفى كذلك دلالة القسم وبلاغته الذي عقب الاستفهام، وهو قوله ﷺ (والذي نفسي بيده لا يأتي بشيء إلا جاء به يوم القيامة فيحمله على رقبته، إن كان بغيراً له رغاء، أو بقرة لها خوار، أو شاة تيعر)، فلهذا القسم دلالة وثيقة في الإنكار على ذلك الرجل من خلال أسلوب الاستفهام، كما أن هذا القسم تنمة في الدلالة والإنكار على العامل الذي صدر منه ذلك الفعل، فقد تضافر أسلوب القسم مع أسلوب الاستفهام في إظهار معنى الإنكار وتحقيقه، وقد أتبع الرسول ﷺ الاستفهام بهذا القسم من أجل أن «يتصور الخائن شدة ما عليه يوم القيامة من محل ما خانته، وليعلم أن الخلق جميعاً يرونه من بعيد، فيعلمون أنه خائن، فيفتضح أمامهم قبل أن يُجازى بالذي لا بد منه». (٢)

الحديث الثامن والثلاثون:

حديث البراء ﷺ قال: (أهديت للنبي ﷺ حلة حرير، فجعل أصحابه يمسونها، ويعجبون من

لينها، فقال: أتعجبون من لين هذه؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منها أو ألين). (٣)

فقد رأى ﷺ تعلق أصحابه ﷺ بحلة الحرير التي أهديت له، وتعجبهم من لينها، مما دفعهم إلى تحسسها ولمسها، فلما رأى ﷺ هذا منهم، وتعلقهم بها، أراد أن يهديهم بها، وأن يقلل من شأنها وأمرها في عيونهم، فكان سبيله في تحقيق هذا الغرض أسلوب الاستفهام في قوله ﷺ (أتعجبون من لين هذه؟) بيد أن هذا الاستفهام لم يكن مقصوداً لذاته، ولكن جعله سبباً إلى صرف أنظارهم وعقولهم إلى ما أعد الله لهم في الجنان مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فذكر لهم مناديل سعد بن معاذ ﷺ في الجنة، فبين لهم أن من شأنها أنها ألين من هذه المناديل وأحسن، فعلام التعجب من لين هذه الحلة، والتعلق بها؟

فقد أرد ﷺ من الاستفهام في قوله ﷺ (أتعجبون من لين هذه؟) أن يوقظ مشاعرهم، وأن يحرك أحاسيسهم، ليصل بعد ذلك إلى ما يريد تحقيقه، والوصول إليه، وهو لفت أنظارهم إلى نعيم الجنة، وما أعد الله لهم في الآخرة، ومن هنا تتبين العلاقة بين هاتين الجملتين، وارتباط كل واحدة منها بالأخرى،

(١) الحديث النبوي من الوجهة البلاغية: ٣٥٨ .

(٢) أسلوب الاستفهام في الصحيحين: ٢٧٢

(٣) فتح الباري: ١٥٤/٧، برقم: ٣٨٠٢، صحيح مسلم: ١٩١٦/٤، برقم: ١٢٦ .

وصلة الجملة الاستفهامية بما جاء بعدها، فقد اتخذ رسول الله ﷺ أسلوب الاستفهام في هذا المقام وسيلة ربط بين الجملتين، لينقلهم مما كانوا فيه، ومشدوهين إليه، إلى مناديل الآخرة ولينها.

الحديث التاسع والثلاثون:

حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: (أشرف النبي على أطم من أطام^(١) المدينة، فقال: هل ترون ما أرى، إني لأرى مواقع الفتن من خلال بيوتكم كمواقع القطر).^(٢)

يخبر النبي ﷺ في هذا الحديث بأمر غيبي مستقبلي، دلالة على صدق نبوته، وقد تضمن هذا الحديث أمراً عظيماً يهم كل مسلم آنذاك، ولعظم هذا الخبر وخطره ضنَّ به رسول الله ﷺ أن يُلقى دون أن يُلفت إليه الأنظار، وأن يشوق إليه النفوس، وذلك أنه خبرٌ له ما بعده، وله شأنه بما سيجرُّ من ويلات، ولما سياتر على من أحداث جسام، ووقائع عظام، ومن هنا أثر رضي الله عنه ألاَّ يلقي الخبر غفلاً من التشويق إليه، وكان سبيله في تحقيق هذا الغرض أسلوب الاستفهام الذي سبق هذا الخبر في قوله (هل ترون ما أرى)؟

فقد أراد رضي الله عنه من هذا الاستفهام لفت أنظارهم، وتهيئة نفوسهم لما سيُلقي بعده إذ هو المراد، وهو بيت القصيد من هذا القول كله، وبعد أن لفت أنظار القوم، وبعد أن اشرأبت أعناقهم لمعرفة ما يريد أن يخبرهم به، بعد هذا كله، ذكر لهم الحقيقة التي يريد بيانها وتحقيقها، في قوله (إني لأرى مواقع الفتن خلال بيوتكم كمواقع القطر).

وإنه لخبر جليل، له شأنه وخطره، ولذا فقد كان قميناً أن يُسبق بأسلوب الاستفهام؛ بغية تشويق الناس إليه، وتهيئتهم لتلقي هذا الخبر، وفي تصدير الخبر بـ "إن واللام" تحقيق لهذا الخبر، وتأکید له، وأن الأمر واقع لا محالة، لا مناص منه ولا مفر.

وفي تشبيه الفتن بالقطر دلالة على كثرة هذه الفتن، وعمومها، فهي ليست خاصة بفئة دون أخرى، ولا بقوم دون آخرين، وقد وقع الأمر كما أخبر، فكانت الفتنة في المدينة، وقد عمت تلك الفتنة أرجاء المدينة كلها، فكانت الفتنة في مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه وكانت - كذلك - في موقعة الجمل وصفين، وغيرها من الفتن التي بُليت بها المدينة .

(١) أشرف: أي نظر من مكان مرتفع، ومنه. والأطم: هي الحصون الرفيعة التي تُبنى بالحجارة. (انظر: أساس البلاغة مادة: أطم، شرف).

(٢) فتح الباري: ٤/١١٣، برقم: ١٨٧٨، صحيح مسلم: ٤/٢٢١١، برقم: ٩ .

وحين نتأمل دلالات لفظة " القطر " الواردة في هذا التشبيه، ونتتبع إيجاباتها نجد أنها قد أشاعت في النص دالتين مهمتين، وهاتان الدالتان مرادتان في كلامه ﷺ، وهما « الاتساع المساحي، والهبوط من علو، وكأنما لفت النبي ﷺ، أنظارهم إلى علو الفتنة على الرقاب، فبلغهم من خلال وقوفه على الحصن المرتفع، والفتنة إذا جاءت من الأعلى أرهبت، وهي تجسم وقع السيف المعتلي الرؤوس، وهكذا عمت الفتنة الأماكن والبيوت كما تصنع حبات المطر الكثيرة، فتمه محاصرة خانقة مروعة، خصوصاً إذا تصور المرء أن هذه الحبات التي تلاحقه رؤوس سيوف وأسنة، وألسنة هب ». (١)

الحديث الأربعون:

حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة؟ فسأله سائل من جلسائه: كيف يكسب كل يوم أحدنا ألف حسنة؟ فقال: يسبح مائة تسبيحة، فيُكتب له ألف حسنة، أو يحط عنه ألف خطيئة). (١)

شاهد الاستفهام في الحديث في قوله ﷺ (أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة)؟، والغرض منه: الحث والتحريض، وقد سلك النبي ﷺ مسلكاً من البلاغة ربيعاً في تحقيق هذا الغرض، وذلك حين اتخذ الاستفهام سبيلاً لتحقيق هذا المعنى في النفوس وتثبيته، وما كان هذا الغرض ليتحقق في النفوس، ويستقر في أعماقها لو تمَّ بيان هذا المعنى، وذكره بغير هذا المسلك، وبدون هذا الأسلوب.

وبيان ذلك: أن تمكن رسول الله ﷺ من نفوس مخاطبيه، واستحوذ على اهتماماتها، فجذب الأنظار نحوه، من خلال أسلوب الاستفهام (أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة)؟، والرائع في ذلك أن ضمَّن هذه الأسلوب معنى بلاغياً يريد تحقيقه، والوصول إليه، فلم يتوانَ في تحقيق هذا الغرض، بل بادر الصحابة ﷺ بهذا الاستفهام (أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة)؟، فكأن الصحابة - رضي الله عنهم - استعظموا هذا الأمر، فليس الألف بالعدد القليل، فأنى لهم تحقيق مثل هذا العدد من الحسنات وكسبها في يوم واحد؟ فكأن هذا الأمر شق عليهم، فسألوه عن الطريقة التي يتم لهم من خلالها كسب هذه الحسنات.

(١) الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف: ٣٥٠، للدكتور: أحمد ياسوف .

(١) صحيح مسلم: ٢٠٧٣/٤، برقم: ٣٧ .

وهنا تمكن النبي ﷺ من هذه النفوس حين جعلها تقبل نحوه، وتسأل بشوق ولهفة عن كيفية تحقيق هذا الأمر، ثم بيّن لهم بعد ذلك كيف يكسب الواحد منهم ألف حسنة كل يوم، قائلاً: (يسبح مائة تسبيحة، فيُكتب له ألف حسنة، أو يحط عنه ألف خطيئة).

وإنه لعمل قليل، ولكن العاقبة عظيمة، وإنه لمكسب عظيم، وتجارة رابحة، ألف حسنة كل يوم، ولكن - ومع عظم هذا الربح، وقلة الجهد المبذول؛ لتحقيق هذا الأجر العظيم - فكم تواني من تواني، وتقاعس من تقاعس، وكم تقاصرت الهمم عن بلوغ هذا الأجر العظيم، ولكنه العجز والكسل اللذان يحولان بين المرء وهذا الثواب الجزيل .

ولعلّ هذا هو السرُّ في اصطفاء لفظة "العجز" في قوله ﷺ "أعجز" في أول الحديث، في بداية الجملة الاستفهامية، ففيها إشارة من طرف خفي إلى أن العجز هو الحائل بين النفوس ومبتغاها، الذي يقف حداً منيعاً دون النفوس الطامحة الوثابة الطامعة في نيل هذا الثواب العظيم .

ومن هنا جاء الاستفهام في أول هذا الحديث، بغرض الحث والتحريض؛ لينفض عن النفوس غبار الخمول والعجز والكسل الذي لفّ تلك النفوس، وأحاط بها، فتقاصرت عن تحقيق هذا الأجر وإدراكه، والمحروم من حرمه الله .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

فهرس المصادر والمراجع

١. أثر التشبيه في تصوير المعني قراءة في صحيح مسلم: للدكتور عبد البارى طه سعيد، ط: ١، ١٤١٢ هـ .
٢. إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري: لأبي العباس شهاب الدين، أحمد محمد القسطلاني، دار إحياء التراث العربي - بيروت، لبنان، ط: ٦ .
٣. إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: مصطفى صادق الرافعي، دار الكتاب العربي - بيروت، ط: ٩، ١٣٩٣ هـ .
٤. إكمال الإعلام بتثليث الكلام: لابن مالك جمال الدين محمد بن عبدالله الطائي النحوي، تحقيق ودراسة: سعد بن حمدان الغامدي، مكتبة المدني - جدة، ط: ١، ١٤٠٤ هـ .
٥. إكمال المعلم بفوائد مسلم: للإمام أبي الفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبي، تحقيق الدكتور: يحيى إسماعيل، دار الوفاء للطباعة والنشر - المنصورة، ط: ١، ١٤١٩ هـ .
٦. التشويق في الحديث النبوي طرقه وأغراضه: د. بسيوني عبد الفتاح فيود، مطبعة الحسين الإسلامية - القاهرة، ط: ١، ١٤٠٤ هـ .
٧. التصوير البياني: دراسة تحليلية لمسائل علم البيان: د. محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة - القاهرة، ط: ٤، ١٤١٨ هـ .
٨. التصوير الفني في الحديث النبوي: للدكتور: محمد الصباغ، المكتب الإسلامي - بيروت، ط: ١، ١٤٠٩ هـ .
٩. التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: للدكتور: عبدالعظيم إبراهيم المطعني، مكتبة وهبة - القاهرة، ط: ١٤٢٠ هـ .
١٠. الحديث النبوي من الوجهة البلاغية: للدكتور عز الدين علي السيد، ١٣٩٢ هـ .
١١. حروف المعاني: عبدالحى حسن كمال، مكتبة المعارف - القاهرة، ط: ١، ١٣٩٢ هـ .
١٢. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب: عبد القادر بن عمر البغدادي، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط: ٢: ١٤٠٤ هـ .
١٣. خصائص التراكيب دراسة تحليلية لمسائل علم البيان: د. محمد أبو موسى، مكتبة وهبة - القاهرة، ط: ٣، (د. ت) .

١٤. دلائل الإعجاز: لعبدالقاهر الجرجاني، قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر، دار المدني - القاهرة، ط: ٣، ١٤١٣هـ.
١٥. دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين: لمحمد بن علامة الصديقي، علق عليه، وأثبت حواشيه: الأستاذ محمود حسن ربيع، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده - مصر، الطبعة الأخيرة: ١٣٩٧ هـ.
١٧. رصف المباني في حروف المعاني: لأحمد بن عبدالنور المالقي، تحقيق: د. أحمد محمد الخراط، دار القلم - دمشق، ط: ٢، ١٤٠٥ هـ.
١٨. روائع من أقوال الرسول دراسات لغوية وفكرية وأدبية: تأليف عبدالرحمن حبنكة الميداني، دار القلم - دمشق، ط: ٥، ١٤١٢ هـ.
١٩. الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية: لابن هشام، لأبي القاسم عبدالرحمن بن عبدالله السهيلي، علق عليه ووضع حواشيه: مجدي من منصور الشوري، دار الكتب العلمية - بيروت، ط: ١، ١٤١٨ هـ.
٢٠. سنن الترمذي: لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة، تحقيق: كمال يوسف الحوت، دار الكتب العلمية - بيروت، (د. ت).
٢١. شرح أحاديث من صحيح البخاري: دراسة في سمت الكلام الأول: للدكتور محمد محمد أبو موسى، مكتبة وهبة - القاهرة، ط: ١، ١٤٢١ هـ.
٢٢. شرح الطيبي على مكشاة المصاييح المسمى: ب: الكاشف عن حقائق السنن: للإمام شرف الدين حسين بن محمد الطيبي، حقق نصوصه: المفتي عبدالغفار، نعيم أشرف، شبير أحمد، بديع اللحام، إدارة القرآن، والعلوم الإسلامية، كراتشي - باكستان، ط: ١، ١٤١٣ هـ.
٢٣. شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح: لابن مالك جمال الدين محمد بن عبدالله الطائي النحوي، تحقيق وتعليق: محمد فؤاد عبدالباقي، عالم الكتب، بيروت، ط: ٣، ١٤٠٣ هـ.
٢٤. صحيح البخاري: للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المكتبة الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، استانبول - تركيا، ط: ١، ١٣٧٤ هـ.

٢٥. صحيح مسلم: لأبي الحسين مسلم بن حجاج النيسابوري، حقق نصوصه: محمد فؤاد عبد الباقي المكتبة الإسلامية، استانبول، (د. ت).
٢٦. الصورة الفنية في الحديث النبوي الشريف: للدكتور: أحمد ياسوف، دار المكتبي - دمشق، ط: ١: ١٤٢٣ هـ.
٢٧. عمدة القاري: لبدر الدين محمد بن أحمد العيني، نشر مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط: ١، ١٣٩٢ هـ.
٢٨. فتح الباري شرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري: للإمام الحافظ أحمد بن علي بن حجر القسطلاني، حققه محمد محب الدين الخطيب، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي، المكتبة السلفية، القاهرة، ط: ٤، ١٤٠٨ هـ.
٢٩. القاموس المحيط: لمجد الدين محمد الفيروزآبادي، مؤسسة الرسالة - بيروت، ط: ٢، ١٤٠٧ هـ.
٣٠. لسان العرب: لابن منظور، دار إحياء التراث - بيروت، ط: ٣، ١٤١٣ هـ.
٣١. مجمع الأمثال: للميداني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجليل - بيروت، ١٤١٦ هـ.
٣٢. مختصر سعد الدين التفتازاني على تلخيص المفتاح: وقد طُبِعَ ضمن شروح التلخيص، مكتبة دار الباز .
٣٣. مغني اللبيب: لابن هشام الأنصاري، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية - بيروت، ١٤٠٧ هـ .
٣٤. من بلاغة الحديث الشريف: للدكتور: عبدالفتاح لاشين، نشر: مكتبات عكاظ، ط: ١: ١٤٠٢ هـ.
٣٥. من كنوز السنة: دراسات أدبية ولغوية من الحديث الشريف، لمحمد علي الصابوني، مكتبة الغزالي - دمشق، ١٤٠١ هـ.
٣٦. المنهاج شرح صحيح مسلم بن حجاج: للإمام محي الدين النووي، تحقيق: الشيخ خليل مأمون شيخا، دار المعرفة - بيروت، ط: ٤، ١٤١٨ هـ

فهرس الموضوعات

رقم الصفحة	الموضوع
١	المقدمة
١	مكانة البيان النبوي
٢	أسباب اختيار أسلوب الاستفهام وبلاغته
٤	الحديث الأول: هل نرى ربنا يوم القيامة؟
٥	الغرض من الاستفهام في قول الصحابة "هل نرى ربنا يوم القيامة"؟
٦	بلاغة التشبيه وأسراره في قوله ﷺ "فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك"
٧	الأسرار البلاغية في تشبيه الرؤية برؤية الشمس والقمر
٧	دلالة اختيار لفظي " الشمس والقمر " في حديث الرؤية
٨	دلالة الاستفهام البلاغية في قول الرسول " أما رأيتم شوك السعدان"؟
٩	بلاغة الاحتراز ودلالته في قوله ﷺ " غير أنها لا تعلم قدر عظمتها إلا الله "
١٠	الحديث الثاني: رأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم
١٠	الأسرار البلاغية في الترغيب بالصلاة من خلال أسلوب الاستفهام
١١	معنى التقرير وأسراره البلاغية
١٢	دلالات اختيار لفظة " نهر " دون لفظة " بحر " في الحديث
١٢	الأسرار البلاغية في تنكير لفظة " نهر "
١٣	بلاغة تشبيه الصلاة بالنهر الجاري
١٥	الحديث الثالث: ينزل ربنا كل ليلة إلى سماء الدنيا
١٥	الأسرار البلاغية في توالي الاستفهام في الحديث
١٨	الحديث الرابع: إن في الجنة باباً يقال له الريان
١٨	بلاغة الاستفهام ودلالاته في قوله ﷺ " أين الصائمون"؟
١٨	إيجاء لفظة " الريان "، وسبب تسميته بهذا الاسم
١٩	الحكمة من تخصيص باب "الريان" بالصائمين دون غيرهم
٢٠	الحديث الخامس: أتدرون من المفلس؟

- ٢٠ بيان حقيقة الإفلاس من خلال أسلوب الاستفهام
- ٢٠ السرُّ البلاغي في تأكيد الخبر في بيان حقيقة الإفلاس
- ٢١ السرُّ البلاغي ي توافر اسم الإشارة "هذا" في الحديث
- ٢١ الاستعارة التبعية وبلاغتها في قوله ﷺ " طُرِحْتُ عليه "
- ٢٣ الحديث السادس: حرمة نساء المجاهدين على القاعدين
- ٢٣ براعة الاستهلال في قوله ﷺ " حرمة نساء المجاهدين على القاعدين... "
- ٢٣ بلاغة الإضافة وغرضها في قوله ﷺ " نساء المجاهدين "
- ٢٣ أسرار تشبيه نساء المجاهدين بالأمهات وأغراضه البلاغية
- ٢٤ دلالات الاستفهام البلاغية في قوله ﷺ " فما ظنكم ؟ "
- ٢٤ بلاغة الحذف ودلالاته في الجملة الاستفهامية
- ٢٦ الحديث السابع: لتتبعن سنن من كان قبلكم
- ٢٦ بلاغة الحذف ودلالاته في الجملة الاستفهامية في قوله ﷺ " فمن ؟ "
- ٢٦ دلالات الاستفهام ومعانيه البلاغية في قوله ﷺ " فمن ؟ "
- ٢٦ تحذير الأمة وتنفيرها من اتباع الأمم السابقة
- ٢٧ السرُّ البلاغي في تخصيص " حجر الضب " بالاتباع
- ٢٧ اشتمال الحديث على معجزة غيبية ناطقة بصدق نبوة المصطفى ﷺ
- ٢٧ تأثر الرسول ﷺ بأسلوب القرآن من خلال أسلوب الاستفهام
- ٢٨ الحديث الثامن: قوله ﷺ " أو مخرجي هم ؟ "
- ٢٨ دلالة الاستفهام البلاغية في قوله ﷺ " أو مخرجي هم ؟ "
- ٢٨ أثر التقديم في الجملة الاستفهامية في بيان المراد
- ٢٩ السرُّ وراء استبعاد الرسول ﷺ من إخراجه من مكة
- ٣٠ بيان السبب الحقيقي في إخراج الرسول ﷺ من مكة
- ٣١ الحديث التاسع: وإن لنا في البهائم أجراً؟
- ٣١ بلاغة الاستفهام ودلالته في قول الصحابة " وإن لنا في البهائم أجراً ؟ "

- ٣١ أثر التقديم ودلالته في الجملة الاستفهامية
- ٣٢ الارتباط الوثيق بين تركيب الجملة الاستفهامية ومعناها البلاغي
- ٣٢ الترغيب في الإحسان إلى كل ذي كبد رطب
- ٣٣ نظائر لأسلوب الاستفهام من القرآن الكريم
- ٣٣ دلالة تنكير لفظة " أجرأ "
- ٣٤ الحديث العاشر: أوليس الله قد جعل لكم ما تتصدقون؟
- ٣٤ بلاغة الاستفهام ودلالاته في قوله ﷺ "أوليس الله قد جعل لكم ما تتصدقون؟"
- ٣٤ تعدد طرق الخير وكثرتها
- ٣٤ دلالة الاستفهام في قول الصحابة "أياتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟"
- ٣٥ دلالة " أرايتم " على الاستفهام وأسرارها البلاغية
- ٣٦ الحديث الحادي عشر: أنا الملك أين ملوك الأرض؟
- ٣٦ غرض الاستفهام وبلاغته في قوله ﷺ "أين ملوك الأرض؟"
- ٣٧ بلاغة الفصل والوصل ودلالاته في كلامه - عليه الصلاة والسلام -
- ٣٧ الحكمة من خلو كلامه ﷺ من أسلوب الاستفهام في دلالاته على التحقير
- ٣٨ الحديث الثاني عشر: يقول ابن آدم مالي مالي
- ٣٨ بيان حقيقة المال، وحقيقة الانتفاع منه
- ٣٨ بلاغة الاستفهام ومعناه في قوله ﷺ "وهل لك يا ابن آدم من مالك...؟"
- ٣٩ السرُّ البلاغي في بيان حقيقة المال من خلال أسلوب الاستفهام
- ٤٠ الحديث الثالث عشر: هل تدرّون مما أضحك؟
- ٤٠ توافر أساليب التشويق وتعدد طرقه في كلامه - عليه الصلاة والسلام -
- ٤١ بلاغة الاستفهام ودلالاته في قوله ﷺ "هل تدرّون مما أضحك؟"
- ٤١ توظيفه - عليه السلام - للضحك في تحقيق أغراضه الدعوية
- ٤٢ الحديث الرابع عشر: يقول الله - تعالى - لأهون أهل النار عذاباً
- ٤٢ الحكمة من مخاطبته - عز وجل - لأهون أهل النار عذاباً في النار

- ٤٣ بلاغة الاستفهام ودلالاته على معنى "التوبيخ" وتحقيقه له
- ٤٣ اقتفاء الرسول ﷺ لأسلوب القرآن في الدلالة على معنى التوبيخ
- ٤٤ الحديث الخامس عشر: يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار
- ٤٤ جزء من يأمر بالمعروف ولا يأتيه، ومن ينهى عن المنكر ويأتيه
- ٤٤ الأسرار البلاغية في مجيء الفعلين "يُجاء، يُلقى" مبنيان للمجهول
- ٤٥ السرُّ البلاغي في اختيار لفظة "الأقتاب" في الحديث
- ٤٦ الأسرار البلاغية في تشبيه دورانه بدوران الحمار برحاه
- ٤٧ الحديث السادس عشر: أتشفع في حد من حدود الله؟
- ٤٧ بلاغة الاستفهام ودلالته في قوله ﷺ "أتشفع في حد من حدود الله"؟
- ٤٨ أثر أسلوب الاستفهام وقدرته على تحقيق معنى الإنكار
- ٤٩ الحديث السابع عشر: متى الساعة؟
- ٤٩ بلاغة الاستفهام ودلالته في قوله ﷺ "وماذا أعددت لها"؟
- ٤٩ من بلاغة أسلوب الاستفهام أنه تضمن أسلوب الحكيم
- ٥٠ الحديث الثامن عشر: وددتُ أنا قد رأينا إخواننا
- ٥٠ الاستفهام وسيلة بيانية لإزالة ما في النفوس من تعجب وشكوك
- ٥١ الحديث التاسع عشر: أيكم يجب أن هذا له بدرهم؟
- ٥١ بلاغة الاستفهام ودلالاته في قوله ﷺ "أيكم يجب أن هذا له"؟
- ٥١ توافر في الحديث عدة أساليب بيانية وتضافرت لتحقيق مراده ﷺ
- ٥٢ الحكمة من اختيار "الجددي الأسك" في بيان حقارة الدنيا
- ٥٢ دلالة اختيار مكان السوق في بيان هوان الدنيا على الله
- ٥٣ الحديث العشرون: أترضون أن تكونوا ربع أهل الجنة
- ٥٣ تضمن الحديث بشارة للأمة من خلال أسلوب الاستفهام
- ٥٣ دلالة تكرار أسلوب الاستفهام وتتابعه في تحقيق هذه البشارة
- ٥٤ بيان الأجواء المحيطة التي قيل فيها أسلوب الاستفهام

- ٥٥ أهمية الروايات للحديث الواحد في بيان المعنى المراد
- ٥٦ الحديث الواحد والعشرون: ما من مولود إلا ويولد على الفطرة
- ٥٦ بلاغة الاستفهام ودلالته في قوله ﷺ " هل تحسون فيها من جدعاء " ؟
- ٥٦ دلالة لفظي " يهودانه وينصرانه " حين جاءت فعلاً مضارعاً
- ٥٧ تضافر أسلوب التشبيه مع أسلوب الاستفهام في تحقيق الغرض، وبيان المراد
- ٥٨ الحديث الثاني والعشرون: سبحان الله ماذا أنزل الليلة من الفتن؟
- ٥٨ بلاغة أسلوب الاستفهام ودلالته في قوله ﷺ " ما ذا أنزل الليلة من الفتن " ؟
- ٥٩ علاقة النساء بالفتن التي أنزلت
- ٥٩ معنى قوله ﷺ " فرب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة "
- ٦٠ الحديث الثالث والعشرون: هل تدرون ماذا قال ربكم؟
- ٦٠ دلالة اختيار الزمان والمكان في تحقيق الغرض من الاستفهام
- ٦١ السرُّ البلاغي في اختيار لفظة " ربكم " في الجملة الاستفهامية
- ٦١ توظيف أسلوب الاستفهام وتطويعه في حماية العقيدة وبيانها
- ٦٣ الحديث الرابع والعشرون: آلبرّ ترون بهن ؟
- ٦٣ سبب إنكار الرسول ﷺ وغضبه على نسائه
- ٦٥ بيان شؤم الغيرة، وبيان عاقبتها
- ٦٦ الحديث الخامس والعشرون: لا عدوى ولا صفر ولا هامة
- ٦٦ قدرة أسلوب الاستفهام على اجتثاث العقائد الراسخة في النفوس
- ٦٨ الحديث السادس والعشرون: يامعشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار
- ٦٩ بيان الأسباب في كون النساء أكثر أهل النار
- ٧٠ الحديث السابع والعشرون: قيل يارسول الله من أكرم الناس
- ٧٠ حرص الصحابة على معرفة من أكرم الناس
- ٧٠ أكرم الأعمال عند الله التقوى
- ٧٠ أكرم الأنساب عند الله يوسف - عليه الصلاة والسلام -

- ٧١ الحكمة من تشبيه أصول العرب بالمعادن
- ٧٢ الحديث الثامن والعشرون: أما يخشى أحدكم إذا رفع رأسه قبل الإمام
- ٧٢ بلاغة أسلوب الاستفهام ودلالاته على الوعيد
- ٧٣ بيان المراد بقلب رأس من يسبق الإمام بالحمار
- ٧٣ الحكمة من اختيار " الحمار " في هذا الوعيد
- ٧٥ الحديث التاسع والعشرون: إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا
- ٧٥ المعاني البلاغية لأسلوب الاستفهام في قوله ﷺ "فأني أن يستجاب له" ؟
- ٧٥ دلالة لفظي " يارب يارب " في الدعاء
- ٧٧ الحديث الثلاثون: رأيتمكم لو أخبرتمكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم؟
- ٧٧ بلاغة لفظة "أرأيتمكم" ودلالاتها على الاستفهام
- ٧٨ اللطائف البيانية في تصدير الاستفهام بقوله "أرأيتمكم"؟
- ٧٩ الحديث الواحد والثلاثون: تلقتُ الملائكة روح رجل ممن كان قبلكم
- ٧٩ دلالة التقديم وأثره في الجملة الاستفهامية
- ٧٩ إيجاء لفظة "الخير" وتقدمها في الجملة الاستفهامية
- ٨١ الحديث الثاني والثلاثون: بعثنا رسول الله إلى الحُرقة، فصَبَّحنا القوم
- ٨١ دلالة الاستفهام وبلاغته في قوله ﷺ " أقتلته بعد أن قال لا إله إلا الله " ؟
- ٨١ الروايات الأخرى للحديث، وما تضمنته من بلاغة ودلالة
- ٨٢ تضافر أسلوب الاستفهام مع التكرار في الدلالة على الإنكار
- ٨٣ الحديث الثالث والثلاثون: أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم
- ٨٣ السرُّ البلاغي في إضافة "الكتاب" إلى لفظ الجلالة "الله"
- ٨٥ الحديث الرابع والثلاثون: يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار
- ٨٥ دلالة الاستفهام وبلاغته في قوله ﷺ " ألم تروا أنها تخرج صفراء ملتوية" ؟
- ٨٥ الأسرار البيانية في تشبيههم بحبة السيل
- ٨٦ توظيف الرسول ﷺ مظاهر البيئة في تحقيق أغراضه وبيان معانيه

- ٨٧ الحديث الخامس والثلاثون: قتل رجل من حمير رجلاً من العدو
- ٨٧ دلالة الاستفهام وبلاغته في قوله ﷺ " فهل أنتم تاركو لي أمرائي " ؟
- ٨٨ استخدام الرسول ﷺ للأمثال وتوظيفها في دعوته وبيان مقاصده
- ٨٩ الحديث السادس والثلاثون: دخلتُ على النبي ﷺ وهو يوعك فحسسته
- ٨٩ أثر التقديم والتأخير في الجملة الاستفهامية في بيان المراد
- ٨٩ الحكمة من كون الأنبياء - عليهم السلام - أشد الناس بلاء
- ٩١ الحديث السابع والعشرون: استعمل النبي ﷺ رجلاً من بني أسد
- ٩١ دلالة الاستفهام في قوله ﷺ " ما بال العامل نبعثه فيقول: هذا لكم وهذا لي " ؟
- ٩٢ الحكمة من ورود القسم في كلامه ﷺ وهو الصادق المصدوق
- ٩٢ بيان عقوبة من يخون الأمة في ما لها يوم القيامة
- ٩٣ الحديث الثامن والثلاثون: أتعجبون من لين هذه؟
- ٩٣ بلاغة الاستفهام وقدرته على مس المشاعر وتحريك الوجدان
- ٩٤ الحديث التاسع والثلاثون: أشرف النبي على أطم من آطام المدينة
- ٩٤ دلالة الاستفهام وبلاغته في قوله ﷺ " هل ترون ما أرى " ؟
- ٩٤ تضمن الحديث خبراً غيبياً شاهداً على صدق نبوته - عليه السلام -
- ٩٤ السرُّ البلاغي في توافر أدوات التوكيد في كلامه ﷺ
- ٩٤ الغرض البلاغي من تشبيه الفتن بالقطر
- ٩٤ دلالة اختيار لفظة " القطر " في بيان خطر الفتن وشيوعها
- ٩٦ الحديث الأربعون: أيعجز أحدكم أن يكسب كل يوم ألف حسنة
- ٩٦ دلالة الاستفهام مع معنى الحث والتحريض
- ٩٧ إيجاز لفظة " أيعجز " في سياق ترغيب الناس بالخير
- ٩٨ فهرس المصادر والمراجع
- ١٠٢ فهرس الموضوعات